التاريخ: الثالث والعشرون من ديسمبر لعام ١٩٨٢

المكان: طهران – ميدان أزادي

الموقع: كراج النقل المركزي للسفريات

obeikan.com

obeikan.com

وصلنا لميدان أزادي التي تعني ساحة الحرية، وفيها كان الكراج المركزي للسفر لكل المحافظات الإيرانية، عند الغروب وبعد مسيرة شاقة داخل شوارع طهران التي كانت تكسوها الثلوج، بعد أن بدأت تتساقط بشكل مكثف منذ صباح ذلك اليوم المشهود، وعند وصولنا لمحطة الحافلات ترجلنا من العجلة العسكرية التي أقلتنا، وكنا سبعة أشخاص، أربعة منا كانوا حُرَّاسًا بكامل سلاحهم، والشابان المتخلفان عقليًا، أو هكذا كانا يدعيّان، وأنا ثالثهما.

وهنا أترك القارئ ليتصور ذلك المشهد الذي كنتُ فيه مكبلاً بهذين المجنونين وأربعة من الجنود، يصوبون بنادقهم على ظهورنا ونحن وسط حشد هائل من الناس الفضوليين، الذين تجمهروا من حولنا منذ لحظة ترجلنا من سيارة الجيب العسكرية وحتى دخولنا إلى المبنى المخصص للانتظار، من غير أن يتفوه أحدٌ من الجمهور المحتشد ولا بكلمة واحدة، وكأننا كنا بزفة عرس صامتة، العرسان فيها كانوا مجانين، وجمهور الزفة من حولهم هم من الخرس، وما كان ينقصنا حقًا بذلك المشهد الساخر والمؤلم على النفس، هو جوقة من الموسيقيين الطرشان!!

لدى دخولنا إلى قاعة انتظار المسافرين أجلسنا حراسنا على إحدى مصاطب الجلوس بمكان منعزل ووقفوا من خلفنا، وتجمع كل جمهور الخرس أمامنا وهم يتطلعون إلينا بدهشة، وكأننا مخلوقات كونية قد هبطت من كوكب آخر، حتى نطق أحد المتجمهرين وسأل الحراس بغية معرفة من نكون؟ فقال لهم أحد الحراس بشكل ساخر واشمئزاز واضح: إنهم أسرى عراقيون، فازداد فضول المتطفلين أكثر وأصبحوا ينظرون إلينا بعيون محدقة وأفواهٍ مفتوحة.

وبدوري تعجبت لذلك المنظر الذي كان يدل على البلاهة، وأخذت أتفحص ما توحي به ملامحهم لأفهم سر ذلك التعجب! فلم أجد إلا تفسيرًا عقلانيًا واحدًا

مفاده هو أن المحدقين بنا لم يتسن لهم رؤية أي عراقي عن قُرب بكل حياتهم، وبالتالي فهم بتلك النظرات البليدة قد قارنوا ما يبدو عليه زملائي المجانين من حال منكسر، وما يسمعونه عنا كعراقيين من بطولات في القتال تفوق أي وصف، من خلال إفشال هجوماتهم المليونية العدد على العراق، بغية ما كانوا يروجون له بتصدير ثورتهم وتحرير كربلاء... واستمر حال أولئك الفضوليين طويلاً، وازدادت أعدادهم أيضًا وهم على تلك الحالة البلهاء.

صرفت نظري عنهم لأتفقد ذلك المكان فوجدته غاية في التنظيم، وأعتقد أنه كان من منجزات ما تركه نظام حكم الشاه واستولى عليه نظام الملالي وآياته الخبيثة، فهناك كانت المكاتب المصطفة على طول تلك القاعة المسقفة الكبيرة التي تؤمن حجز السفر إلى كافة المحافظات الإيرانية وكان عددها بعدد تلك المدن، وقد لفت انتباهي أن أحدها كان يرفع يافطة كتب عليها سوريا، وذلك يعني السفر إلى مرقد السيدة زينب بدمشق، وبين الحين والآخر كنا نسمع الإرشادات بتوجيه المسافرين من تلك القاعة بالتوجه لخارجها حيث تنتظرهم الحافلة التي ستقلهم لوجهتهم التي يرومون السفر إليها، وتلك خدمة لم تكن متوفرة عندنا في بغداد، لا من ناحية التنظيم ولا من ناحية تهيئة مكان رحب كهذا للمسافرين إلى المحافظات، وكنت حتى تلك للحظة غير متيقن من وجهة تسفيرنا، بالرغم من أنهم أخبروني أن وجهتنا هي محافظة أرومية، لما للفرس من قابلية على الكذب والمراوغة.

وعندما نودي بمكبرات الصوت على المسافرين المتوجهين إلى محافظة أرومية، واسمها السابق الرضائية، صاح بنا الحراس من أجل أن ننهض للحاق بالحافلة قبل أن تغادرنا، فمشينا متوجهين إلى الخارج والحراس من حولنا، ولحقت بنا تلك الجموع الفارسية الحاقدة وقد ضيقت علينا بدائرة تجمعها، وكان حراسنا مرتاحين من ذلك التضييق، حتى وصلت أيادي بعض أولئك

الفرس الأنذال لتنال منا بالضرب ونحن مكبلين وتحت الحراب، وهذه هي شيمة أغلبية الفرس لأنهم جبناء، حتى ازدادت تطاولاتهم بزيادة أعدادهم، وتوالت الضربات العنيفة بحقنا، وحينها كنت حريصًا جدًا على التحمل من أجل أن لا أسقط أرضًا لكي لا يتشجع الباقون ويرفسوني بأقدامهم كما فعلوا برفاقي الذين تمَّ ربطي بهم، وحاولت جاهدًا أن أرفعهم كلما سقط أحدهم.

وعندها ثارت ثائرتي وقلت بملئ فمي بالعربية بصوت هز أركان تلك القاعة الكبيرة المخصصة لانتظار المسافرين، كعراقي طفح به الكيل من الظلم: ألا قرت أعين الجبناء، وكررتها لعدة مرات بعصبية بالغة مع ترديدي لبعض المفردات البغدادية اللاذعة التي شتمتهم بها، وهنا يكمن السؤال المهم: أين الرجولة بضرب عدو من خلفه وليس وجهًا لوجه حتى ولو كان مكبلاً ومربوطًا بآخرين؟ وهل كان أحدهم سيتجرأ ليمس شعرة من رأسي لو كنت طليق اليدين؟ ولكن ماذا أقول للأقدار التي جعلتني تحت رحمة من لا رحمة بقلوبهم، وأنا الذي أنادي بحرية المظلومين، فإذا بي أكون أحد المظلومين، ومِن مَن؟ مِن الفرس الأنجاس، ألا تبًا لهم ولكل من يتشدق بهم.

وبذلك فإننا قد أجبرنا على التوقف بسبب عدم وجود فسحة من طريق نمضي خلالها، وهذا يعني أننا سنتأخر عن موعد انطلاق الحافلة، وهذا ما أغضب أحد الحراس الذين لم يكونوا مبالين بالتحرش بنا ببادئ الأمر، وصرخ بتلك الجموع من أجل إفساح المجال لنا للمضي قدمًا بطريقنا نحو الحافلة التي تأخرنا عليها كثيرًا، بعد أن وجد الحراس أن تعريفهم لنا بكوننا أسرى لتلك الجموع الجبانة بقصد الإساءة إلينا؛ قد انقلب وبالاً عليهم بعد أن أوشكوا على فقدان زمام السيطرة بالحفاظ علينا، الأمر الذي تسبب بتعطيل مهمتهم بإيصالنا للحافلة التي أوشكت على الحركة، لتنتهي تلك المهزلة، وبنظرة خاطفة كنت أتفحص وجوه المعتدين من حولي؛ وقع نظري على إحدى السيدات العجائز التي كانت تراقب

ذلك المشهد من بعيد وهي تبكي بصمت من أجلنا وعلينا، فتبادر إلى ذهني أنها قد تكون صاحبة قلب رحيم، أو أن لها من هو أسير في العراق وتعتقد أنه يعيش هناك نفس تلك المحنة، وذلك غير صحيح على الإطلاق لأنه لم يحصل أن تمَّت الإساءة لأسير إيراني من قبل الجماهير في العراق.

وبين هذا المشهد الوحشي الجبان، وما كانت تتوعد به تلك الجموع الحاقدة الغاضبة التي ما كانت ستنتهي لولا حسم الحراس لأمرهم بعد أن أشهروا بنادقهم بشكل تقليدي، من أجل أن نمضي بطريقنا إلى مكان تواجد الحافلة التي ستقلنا إلى محافظة أرومية، على مدى اثنتا عشر ساعة قادمة من السير المتواصل ليلاً وحتى حلول الصباح، فانصاع الجميع وأفسحوا المجال مدبرين وخائفين حتى وصلنا إلى الحافلة بعد جهد جهيد وصعدنا إليها وتوزعنا، بحيث جلس كل حارس بجوار أحد منا نحن الثلاثة، وجلس رابعهم في الخلف من أجل أن يراقبنا جميعًا بعد أن حلوا قيودنا التي كانت تربطنا ببعض، وبقي كل واحد منا مقيد من معصميه فقط.

انطلقت الحافلة بنا وكنت أرغب في الحصول على منديل امسح به الدم الذي كان يتدفق من داخل عيوني، ولم أحصل على واحد منها حتى لو كان متسخًا، فتركت موضع الجرح ليتجمد الدم عليه، وبتلك الأثناء وجدت نفسي مطالبًا أكثر من أي وقت مضى خلال السنتين الماضيتين للحرب التي افتعلها الفرس بهجومهم على بلدي العزيز العراق، أن أشد على يد الرئيس صدام حسين الذي كان يهوي بالمطرقة العراقية الجبارة المتمثلة بإرادة شعبي العراقي بالتصدي، ليكسر بها تلك الرؤوس العفنة للفرس الأنجاس لعنة الله عليهم وعلى من يحتذي بهم من أراذل العراقيين، حتى وإن كنت محسوبًا على من كانوا يعارضوا سياسته الداخلية في العراق، باعتباري كنت پيشمرگة مناهض لنظام حكمه..

وعند أول حركة للحافلة بالسير على الطريق نهض أحد المسافرين الجالسين في المقدمة ليُتلي الصلوات على النبي وآله وقد بدأ بصوت منخفض خجول: اللهم صلي على محمد، ثم يهيج بشكل عنيف مرتفع وكأنه يدعوا للنفير بالحرب ليقول: وعلى آله صلوات الله عليهم، وجميع المسافرين يرددوا من بعده نفس ما يقول وعلى نفس طريقة إلقائه التي تفسر حتمًا بعيونهم الخبيثة على أن منزلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق أجمعين، لا يذكر اسمه الشريف من قبل هؤلاء القوم المنحرفين سوى من باب المجاملة بصوت مبحوح مخنوق، وإن آل بيته الأطهار هم الذين تصدح لهم الحناجر وكأنهم أكثر رفعة حاشاهم، من جدهم نبي الهدى للناس أجمعين، وتلك عادة كانت متبعة بكافة أنحاء إيران، وفاتني أن أذكر مثيلاتها التي حدثت أثناء ترحيلي من مريوان إلى سنندج ثم إلى طهران.

ولأن عدم ترديد ما كانوا يهتفون به يعتبر خطيئة بنظرهم، فلقد أصبحت أردد معهم بصوتٍ عالٍ ضاع وسط صراخهم لأقول: إن الله بريء مما تقولونه ولا تفعلوه، أسأل الله أن ينتقم منكم شر انتقام، إن النبي الكريم وآل بيته هم الأطهار وأنتم الأنجاس، ألا تبًا لكم وما تصنعه أياديكم من خبث وإيذاء... إلخ.

في تلك اللحظة بالذات شعرت متوهمًا، أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله وعليه السلام، كان قد أخطأ عندما أدخل تلك الملة الفارسية المشعوذة بدين مشترك يجمعنا وإياهم، ثم بعدها ينصبوا أنفسهم الخبيثة أوصياء علينا، عندما أدعوا بأنهم آيات عظمى و.. إلخ وصدقهم بعض المغفلين منا، وكان الأجدر به بعد أن كسر شوكتهم أن يتركهم لمجوسيتهم التي كانت ستحجم من غرورهم كفرس، وبذلك فإنهم لن يستطيعوا التعالي علينا بيوم من الأيام، وليس كما أصبح عليه الحال بعد أن أعلنوا إسلامهم ظاهريًا.

ذلك لا يلغي طبعًا وجود الرحمة بقلوب بعض الخيرين بذلك البلد اللعين الذي أصبح يدعى بإيران، لكن نسبة الخيرين منهم باعتقادي قليلة جدًا لا تتعدى نسبة الواحد من عشرة آلاف إذا ما أنصفتهم بهذه النسبة الافتراضية، هذا وأرجو من الله أن يغفر لي ما تفوهت به بحق سيدي ابن الخطاب في لحظة غضب نتيجة موقف لا أرجو لأحد غيري أن يمر به على الإطلاق. عفوًا يا سيدي عمر الفاروق على ما بدر مني وأسألك السماح يا سيدي وأنت صديق رسول الله وناصره على القوم الكافرين، وعذري بذلك هو إني كنت أشعر بظلم شديد من أناس أدخلتهم أنت بدين الحق وبعدها تنكروا لك قبل غيرك من المسلمين..

مضينا بتلك الليلة المظلمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وجميع ركاب الحافلة قد خلدوا للنوم، وساد الصمت وأنا أتفكر وأقول لقدري: إلى أين المستقر هذه المرة يا ترى؟ وبتلك الأجواء كان قد اشتد بي الشوق والحنين للعراق أكثر من أي وقت مضى من وجودي بذلك البلد اللعين أو بكل حياتي السابقة فتناسيت جوعي وجروحي وألمي، وأخذت أردد ترنيمة بعينها بصوت منخفض وسط ذلك السكون المطبق بتلك الأجواء الساكنة، بشكل متقطع وعيوني تترقرق منها الدموع لتمسح الدم الذي علق بها نتيجة الجرح، وكنت أبدو حينها لمن تسنى له أن يسمعني أنني كنت أهذي، وهم لا يعلموا بأني كنت أغذي روحي وأشد من عزيمتي من خلال تذكري بوطني الغالي العراق.. ورددت: بلادي بلادي بلادي وإن جارت علي علي علي عزيزة وأهلي وأهلي وإن شحوا علي كرام..

استمرت الحافلة تسير بنا بذلك الليل الطويل، وقد علمت أن وصولنا إلى أرومية سيكون في الصباح الباكر، وحينها كنا بأولى ساعات الليل والأمر يستدعي بهذه الحالة نزول الركاب للاستراحة في المطاعم والمقاهي التي كانت

منتشرة على طول الطريق، ولعدة مرات قبل أن نصل في صباح اليوم التالي لمحافظة أرومية، الرضائية سابقًا، وبعد كل تلك الأحداث الدرامية شعرت بحاجتي لأن أدخن سيجارة علها تواسيني بذلك الموقف، لأني منذ ظهيرة الأمس عندما تركت قفص الأسرى، لم أستطع الحصول على واحدة منها لأدخنها، أو لقمة خبز أسد فيها رمقي، لأنني حرمت من وجبتي الغذائية الوحيدة التي كنت أحصل عليها هناك، وكذلك السجائر التي كنت بين الحين والآخر أحصل على واحدة منها، من تلك التي كان بعض إخوتي الأسرى من غير المدخنين، يحصل على ثلاثة منها بين الحين والآخر من الإدارة ضمن تعيينه كأسير، وكانت من نوعية إيرانية رديئة جدًا من غير فلتر، وببعض المناسبات كانت توزع عليهم السجائر العراقية من نوع سومر كنك سايز، وهي من تلك التي كانوا يغنموها أثناء المعارك، وعليه فلم أجد بُدًا لأن أطلب سيجارة من أحد المسافرين الذي كان يدخن بالقرب مني وسط ذلك السكون وباقي ركاب الحافلة نيامًا، فأعطاني سيجارة على مضض، استنشقتها وأنا بمعدة خاوية..

وفي أولى إحدى التوقفات من أجل تناول الطعام أو أداء الصلاة أو الاستراحة لمن كان يرغب من الركاب، وطبعًا نحن لم نكن نحتسب ركابًا ولا حتى بشرًا، وكان الوقت حينها التاسعة مساءً، فنزل الجميع باستثنائي ورفيقيَّ المجنونين المكبلين، وعندها قَسَّم الحراس أنفسهم على وجبتين، لينزل اثنان منهم إلى المطعم ويبقى الاثنان الآخران لحراستنا، على أن يتبادلوا المواقع بعد فترة وجيزة ليرجع من كان بالخارج ليبادله حارس آخر ممن كان معنا، ثم ليرجعوا بعدها مع بقية الركاب قبيل انطلاق الحافلة من جديد، فمكثت أتفرج على ما خطه الحراس من سيناريو بائس لم يحسبوا لنا فيه أي حساب باعتبارنا بشرًا نحتاج بالتأكيد للطعام أيضًا... حتى عاد جميع الركاب إلى الحافلة التي انطلقت بنا من جديد لتشق طريقها وسط ظلمة ذلك الليل وسكونه وأنا وسط أولئك

القوم الظالمون، وتوقفت الحافلة بنا من جديد بعد ثلاث ساعات أخرى وكان الليل قد انتصف حينها، فنزل جميع الركاب واثنين من الحراس كما حصل أثناء التوقف السابق، وبعد فترة قصيرة طلبت من أحد الحارسين النزول من الحافلة لقضاء حاجتي، فأنزلني من الحافلة وترك صاحبه لحراسة الاثنين الآخرين، وكان الطقس شديد البرودة بخارج الحافلة ولكنه سرعان ما تلاشى لدى دخولنا إلى قاعة المطعم الدافئة وروائح الأطعمة الشهية تفوح من المأكولات التي كانت تقدم إلى ركاب حافلتنا وغيرهم من ركاب لحافلات أخرى كانت متوقفة بذلك المكان للغرض نفسه، فمضى بي ذلك الحارس إلى مكان دورة المياه، ودخل فيها من أجل أن يفتشها إن كان هناك أي منفذ قد أستطيع الهروب منه، وعندما اطمئن لعدم وجود نافذة كبيرة، سوى واحدة صغيرة جدًا كانت قريبة من السقف، فك القيد من يدي وأدخلني لدورة المياه ووقف ينتظرني على بابها، ولأني كنت جائعًا فلم يكن لدي من حاجة أطرحها هناك، واكتفيت بغسل يدي ووجهي وخرجت بعدها لأجد الحارس قد حضر القيود ليعيدها إلى يداي، ثم اقتادني ليرجع بي إلى الحافلة.

وحينما مررنا بجانب المائدة التي كان يجلس عليها باقي زملائه وهم يتناولون طعامهم، طلب مني أولئك الحراس الأوغاد أن أجلس إلى مائدتهم، فانصعت لأمرهم لأني كنت حريصًا على ألا أضع الحجة بيد أحدهم وبالتالي أتعرض للإهانة التي لا تليق بي وبأي عراقي شريف، مع يقيني إنهم لم يبغوا الخير لي بذلك الطلب أو الأمر، وعندما جلست تعمد أولئك الجنود، وقد صدقت ظنوني، برمي بعض فتات الخبز أمامي على نفس طاولتهم وهم يضحكوا بصوت عالي واستهتار مبالغ به ونحن بمكان عام ومحترم على ما كان يبدو، ظنًا منهم خاسئين أني سألتقط إحداها بسبب الجوع، تمامًا كما يفعل البعض عند إطعام كلابهم، وللأمانة أقولها من غير خجل، أنهم لو رموا لي بسيجارة، لكنت قد

أخذتها على الفور ودخنتها من غير تردد، غير مباليًا بنواياهم الخبيثة وليذهبوا للجحيم، وهذه هي إحدى المساوئ الأخرى للتدخين بمثل ذلك الظرف الذي لا أتمناه حتى لعدو لدود، ولكن الطعام كان أخر ما كنت أفكر به، بسبب الحالة النفسية المزرية التي كنت عليها، وعليه فإني لم أعرهم أي اهتمام يذكر وكأني لم أكن أراهم أو أسمعهم، بعد أن كظمت غيظي والتفت إلى جهة أخرى كأن الموضوع لا يعنيني.

وهناك وقع بصري على رجل بالعقد الخامس من عمره وهو يتجه نحوي، باحتمال أنه قد رأى تلك السخرية المبتذلة التي أقدم عليها أولئك الحراس وهم يرموا لي بفتات الخبز، وقرر أن يقدم لي الطعام الذي كان قد طلبه لنفسه، وقال لي بالفارسية: بفرمو أغا، وتعني: تفضل يا سيدي، وهنا تدخل الحراس ونهروه لما فعله قائلين له: هل تعلم من يكون هذا؟ إنه أسير عراقي.. وكأنهم بذلك أرادوا أن يعيدوا استخدام نفس الورقة الصفراء التي نجحت معهم في كراج السفريات بطهران عندما حرضوا الناس ضدنا بقولهم هؤلاء أسرى عراقيين، لأنه برأيهم يريد أن يطعم كافرًا عراقيًا أسيرًا، وذلك باعتقادهم الأهوج أمر كان يسيء لأي فارسي بحسب اعتقادهم المنحط، وعندها صرخ بهم ذلك الرجل الطيب بعد أن خرج عن حالته الهادئة التي كان عليها، قائلاً لهم: تعترفون أنه أسير، والله يوصي بقرآنه بالأسير واليتيم وابن السبيل، فبئس المسلمين أنتم، وعلى أثرها خنس الحراس بعد أن ألزمهم ذلك الرجل الطيب الحجة، وسحبوا اعتراضهم قائلين لذلك الرجل الطيب: افعل ما تريد فعله.

فقلت بما تعلمته من اللغة الفارسية لذلك الرجل المسلم بحق:

– شكرًا على صنيعك يا سيدي ولكني لست بجائع.

ففهم الرجل مقصدي على أنها مكابرة وعزة نفس فقال:

– أرجوك أن تتقبل مني هذا الطعام يا سيدي!

فقلت :

– حسنًا أقبله إذا ما حضر زملائي المحجوزين بداخل الحافلة ليأكلوا معي.

فاستدار بوجهه إلى الحراس وقبل أن يتكلم إليهم، أرسل رئيسهم أحد زملائه لإحضار الاثنين الآخرين من الحافلة، وعندما اكتمل عددنا، وحضر رفيقيَّ المجنونين وجلسا على مائدة قريبة منا، باشرت أكل ما رزقني به ربي الذي سخره لي عن طريق ذلك الرجل الطيب، والطعام كان عبارة عن صحنين أحدهما فيه الأرز والآخر فيه مرقة الفاصوليا، وكنت بكل لقمة أدخلها لفمي انظر إلى ذلك الرجل الشهم وأدعو له بالعافية وتجنبه لأي مكروه بحياته، حتى شبعت أنا ورفيقي الاثنين، والجوع كافر لا يرحم لمن جربه، والرجل الطيب لم ينفك على خدمتنا طوال تلك الفترة ذهابًا وإيابًا، وعنما انتهينا من تناول الطعام، أحضر لنا الشاي بيده الكريمة، على الرغم أن الطريقة المتبعة بتلك الأماكن هي أن يقوم النادل بتلك الخدمة، ولكنه كان على ما كان يبدو حريصًا أن يأخذ أجره من الحسنات مضاعفًا من الباري عز وجل، وهو والشهادة لله يستحق أن يكون مثواه في الجنة بصحبة الصديقين والأولياء الكرام، والله أعلم، وأنا والله حتى لم أتعرف حينها على اسمه ولم أعد حاليًا أتذكر حتى شكله على الرغم من بغضي الشديد للفرس بسبب أعمالهم الخبيثة في إيذاء بلدي، ولكني مازلت أذكر ذلك الرجل الإيراني المسلم بكل خير لأنه من عباد الله المخلصين للإسلام الحقيقي، وأمثاله هم من القلائل جدًا ببلاد فارس..

صعدنا جميعًا لتلك الحافلة المتوجهة بنا إلى محافظة أرومية بعد أن أشبع بطوننا ذلك الرجل الإيراني الصالح الذي لم يكن أحد ركاب حافلتنا، وهو لم

يكتفِ بتصرفه الإنساني الذي طوق به رقبتي وأنا العراقي الذي لا يتنكر للجميل، فقد سألني قبل أن يودعني إن كنت أحتاج لشيء آخر يفعله من أجلي؟ فقلت له بحياء تام طمعًا بكرمه: ينقصني أن أدخن سيجارة، فذهب مسرعًا إلى إحدى الأكشاك المجاورة وعاد ليعطيني علبة دخان كاملة، وتوجه لرفاقي الاثنين الذين اشترى لكل واحد منهم جواريب شتوية سميكة وألبسهم إياها بيده بأرجلهم التي كانت عارية وترتجف من البرد وأعطاني واحدة منها، لأننا كنا نرتدي نعلاً صيفي ممزق، بسبب مصادرة أحذيتنا من قبل إدارة الزنازين التي كنا نقبع فيها، فشكرته حينها وودعته بكل محبة واحترام.

تمنيت لو كان كل الناس في إيران على نفس وجدانه وضميره وإسلامه الصحيح، وعندها سيتحقق لنا أن نعيش بسلام ولن نضطر لمقاتلة بعضنا البعض لنصبح أعداء على أمد الدهر، كما فعل الفرس بعدائهم للعراق منذ القدم، عندما هاجموا البابليين قبل أربعة آلاف سنة، وأسقطوا حضارتهم التي علمت البشرية الأبجدية وسن القوانين لتنظيم الحياة، ولكن كيف سيتحقق ذلك وهذه السماحة والخلق الرفيع وهي الخطوط الحمراء التي لا يسمح ملالي قم وطهران بتجاوزها أو العمل بها؟ لأن المسامحة والمحبة والتآخي وحسن الجوار؛ هي مفردات ممنوعة بقاموس حياتهم اليومية والسياسية وحتى الدينية التي ابتدعوها كما أسلفت بالشرح الوافي عن ذلك، لأنها مبنية على الثأر الشوفيني العنصري الفارسي الأعمى، منذ أن أطفأ المسلمون العرب نار مجوسيتهم بمعركة القادسية بصدر الإسلام على أقل تقدير.

عند تلك النقطة أود أن أنوه وأشير أن كل من تصرف معي بطيب وإحسان من كل أولئك الفرس الذين صادفتهم بإيران، باستثناء هذا الرجل الطيب، وذلك الجندي الإيراني الكردي قهرمان الذي صادفته في سجني بقضاء مريوان

الحدودي مع العراق.. لأن الباقين ممن عاملوني بأحسان كانوا يروا بصورة شخصي متوهمين أنني ذلك الحليف من جماعة مسعود البرزاني وبالتالي تعاطفوا معي، باعتباري واحد منهم وليس على اعتباري عراقي وحسب، فما بالكم لو أنهم تمكنوا من قراءة أفكاري الوطنية؟ ليعلموا أني كنت أحد مقاتلي الجيش العراقي! الجواب يكمن بتفاصيل ما رويته لكم من ذلك الإيذاء المتعمد وتلك الممارسات البغيضة التي تعرضت لها على طول أمد رحلتي هذه، ناهيك عن ما علمتوه من المعاملة الوحشية الدنيئة لإخوانكم الأسرى من العراق تلك التي نقلتها لكم وما خفي منها كان أعظم.

مضت بنا الحافلة مرة أخرى بظلمة تلك الليلة التي لا تنسى، لتسير بنا لما تبقى من الليل باستثناء توقف واحد كان من أجل استبدال السائق بواحد آخر، حتى وصلنا إلى أطراف محافظة أرومية أثناء الصباح الباكر، ولدى مرورنا ببعض المعسكرات الدائمية للجيش الإيراني الممتدة على جانبي الطريق العام، والحافلة متوجهة بنا لوسط المدينة، عندها نادى أحد الحراس على سائق الحافلة من أجل التوقف بغرض النزول، باعتبارنا قد وصلنا لمبتغانا، فنزلنا جميعًا وقيدنا الحراس ببعضنا على نفس الطريقة التي كنا فيها قبل أن نستقل تلك الحافلة في طهران، وذلك بأن ربطوا إحدى يداي بأحد زملائي المجانين واليد الأخرى بيد المجنون أو مدعي الجنون الأخ ومضوا بنا سيرًا على الأقدام باتجاه إحدى بوابات تلك الوحدات العسكرية المتفرقة هناك من التي كانت تبعد مسافة النصف ساعة مشيًا على الأقدام عن الشارع العام في الظروف الطبيعية، ولأن الطريق لم يكن معبدًا ويكسوه الجليد الذي كان على شكل صقيع متجمد، فإنه كان من الصعوبة علينا أن نمشي عليه ونحن مربوطين ببعضنا بالأصفاد الحديدية من غير أن نتزحلق ونحن بدون أحذية تساعدنا على الثبات أو موازنة أنفسنا، ناهيك عن برودة الطقس بذلك الوقت المبكر من ذلك الصباح، الأمر

الذي كان يتوجب مني أن أحافظ على توازني عندما ينزلق أحدهم من أجل أن لا أقع أرضًا بسبب ربطي بهما، وعليه فإني كنت أعمل على سحب ذاك الذي على يميني عندما ينزلق، ونفس الشيء كنت أفعل مع الآخر الذي على يساري، حتى تزحلق الاثنين سويًا وأوشكوا على إيقاعي معهم لو لم أكن محتسبًا لذلك، وعندها توجب علي رفع الاثنين معًا لكي يعتدلوا بمشيتهم، ومضينا من جديد بطريقنا إلى المجهول.

وكل ذلك الذي كان يجري لم يمد لنا أحد من حراسنا الأربعة الأوغاد يدًا للعون، لأنهم كانوا مستأنسين بذلك المشهد الذي جعلهم يغرقون بنوبة من الضحك الهستيري المستمر الذي أوشكوا به على الاختناق، ألا تبًا للفرس وتبًا لكل وضيع يتمثل بهم.

وأخيرًا وصلنا جميعًا إلى بناية لمقر وحدة عسكرية واستقبلنا حراسها الذين كانوا يراقبون حركتنا من مكانهم، بأهازيج وصرخات وعويل بصوت عالٍ لم أفهم مفرداتها بالتمام لما كانوا يرددونه وهم ينعقون، ولكني علمت أنها كانت كلمات نابية بذيئة تعبر عن شعورهم بنشوة النصر، لاعتقادهم أننا من الأسرى الذين تمَّ أسرنا حديثًا، ونحن في طريقنا إلى أحد أقفاص الأسرى العراقيين بتلك النواحي، فمررنا بجانبهم لندخل إلى استعلامات تلك الوحدة العسكرية من غير أن أعيرهم أي اهتمام يذكر أو ألتفت نحوهم.

واستمر حراس تلك الوحدة العسكرية على نباحهم الذي لا أستطيع أن أشبهه بنباح الكلاب لكي لا تدَّعي الكلاب أني ظلمتها كونها لا تنبح إلا عندما تستشعر بالخطر، ولأن لها صفة الوفاء التي تتميز به عن باقي المخلوقات، وهي صفة انعدمت بتلك الكائنات التي هي أبعد ما تحمل صفة الآدمية، وسيدنا آدم وجميع ذريته من البشر وخالقهم؛ هم براء من أفعال هذا العنصر البشري الخبيث

المتنكر لإنسانيته، باستثناء القلة القليلة منهم كما شرحت ذلك سلفًا، وعند دخولنا إلى دائرة الاستعلامات تلك الوحدة العسكرية سلمنا الحراس الأربعة إلى من يعنيهم أمرنا بعد أن زودوهم بوثائقنا من الكتب الرسمية، ورفعوا عن أيدينا أصفادهم الحديدية وانصرفوا عائدين لوحداتهم العسكرية بطهران، وجلسنا نحن الثلاثة بدائرة الاستعلامات، وكنت حينها بأشد حالات التوتر النفسي لما سيكون من أمري وزملائي الذين لم يتكلموا بحرف واحد منذ بداية سفرتنا من طهران، وهم يمثلوا بإتقان دور المتخلفين عقليًا، ليسبحوا بغياهب اللاوعي بكل ما كان يدور من حولهم، الأمر الذي جعلني بحيرة من أمرهم، لأني لم أتبين إن كانوا أسرى أم لاجئين تحولوا لأسرى، كصاحبنا سعيد طيب الذكر، ولكني وجدتهم أثناء تلك اللحظات الحرجة قد بدأ القلق والتوتر يظهر عليهم أيضًا، واستشعروا بأهمية ذلك الانتظار وهذا يؤكد أنهم ليسوا بمجانين. حتى جاءنا بعد قليل أحد الجنود من منتسبي تلك الوحدة العسكرية من الذين يعنيهم أمرنا، وسأل عن العبد لله هشام النورسي أي واحد هو فينا؟ فأخبرته بأنني هو الذي يسأل عنه وكنت على حالة من الضجر والتذمر وعلامات الغضب بادية على وجهي بسبب ذلك الاستقبال الهمجي لنا من قبل جنود الحراسة، فقال:

– لماذا أنت حزين وقد أصبحت حرًا طليقًا؟!

فقلت باستغراب شديد:

– ماذا؟!!

فأعاد على مسمعي نفس ما قاله لي قبل لحظات، ولا تزال تلك العبارة الفارسية التي تفوه بها مطبوعة بذاكرتي وكأنها جرس يدق بعالم النسيان:

– شُوما آزادي..

وتعني بالعربية: أنت حر طليق.

وبعدها أكمل حديثه ليوضح لي الموضوع أكثر وقال:

– سنرسلك إلى دائرة الانضباط العسكري بوسط البلدة، وهناك ستتم الإجراءات الرسمية لتسليمك إلى حلفائنا من جماعة البرزانيين باعتبارك أحد مقاتليهم.

وللعلم فإن المقاتل بالفارسية يدعى مبارز... ولا أكتم سرًا عندما أقول إنني حينها لم أفرح من كل قلبي لذلك الخبر الصاعق بل أستبشرت خيرًا باعتبار أن ذلك الحدث إن كان حقيقيًا فهو رحمة ونصر رباني سخره لي ربي ورب جميع الخلائق، وهو الذي يستجيب لدعوة المظلوم بكل زمان ومكان، ولكن التجربة علمتني ألا أستعجل بالتفاؤل لكل ما يقال لي بذلك البلد اللعين، كما كان يحدث معي في كل الوعود السابقة التي اتضح بعدها أنها زائفة، وبالتالي تنقلت من سجن لآخر ومن زنزانة إلى قفص للأسرى.

ومن أجل أن أختبر صدق كلامه على طريقتي الخاصة التي تعلمتها بتلك الظروف العصيبة، طلبت منه طلبًا لم أطلبه في السابق من أي أحد غيره وقلت له:

– أرجو أن تسمح لي بتناول قدح من الشاي أشربه مع هذه السيجارة؟

فقال من فوره:

– لك ما طلبت، وسأحضر لك بعض الطعام أيضًا لأنك بالتأكيد جائع بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة، ريثما أرسل بطلب سيارة تنقلك مع هذين الشابين الذين سيحقق معهم من قبل جماعتك في القيادة البرزانية، وعندها ستكون أوراقكم الرسمية جاهزة أيضًا..

كان هذا مؤشر على صدق أقواله باعتباره قد احترمني كطليق، وليس كأسير أو سجين كما كنت في سابق الأيام التي تعرضت فيها لكل أنواع القهر والإذلال. فابتسمت له في إشارة على القبول والرضا من ناحية وإلى احتمال قوي بصدق

ما قاله لي من خبر سار من ناحية أخرى، وذلك الحدث الذي كان بالأمس من سابع المستحيلات لكنه تحقق وأصبح ميسر بفضل من الله عز وجل ورحمة منه، وهو القادر على كل شيء بعد أن أصبحت على شفا حفرة من اليأس بالنجاة فرحمني ربي ونجاني..

وبعد تناولي الطعام الذي أشركت فيه زملائي الشابين اليافعين المجنونين أو مدعيّ الجنون، وقد تغير حالهما لدى سماعهما أنهما سيحقق معهما عند جماعة البرزانيين، وتلك إشارة عن أنهما فعلاً واعيان ويفسران ما كان يدورمن حولهما وبما سيحدق بهما من شر هناك، على عكس ما كانا يتظاهران به طيلة فترة سفري معهما.. وبعد أن انتهينا من تناول وجبة الإفطار، ويا للهناء الذي حل علي برحمة من ربي، عشاء كان في المساء يتبعه إفطار في الصباح، وعلبة دخان بكاملها بجيبي، وبشائر الحرية تهل علي بحق وحقيقة، وحينها شعرت أن كنوز الدنيا كلها لم تكن تعادل تلك اللحظات الممزوجة بين الفرحة المصحوبة بهاجس من القلق...

بعد ساعتين من وصولنا لتلك الثكنة العسكرية، اصطحبنا أحد الجنود إلى عجلة جيب عسكرية دون أن يضع القيود بأيدينا، وانطلقت عجلته تسابق الريح إلى داخل مدينة الرضائية، وهناك سلمنا إلى استعلامات دائرة الانضباط العسكري بوسط البلدة، وجلسنا في الاستعلامات ننتظر حتى حضر ضابط الاستعلامات وكان برتبة ملازم ثان، وهو شاب لطيف وكريم للغاية لاعتقاده أني من حلفائهم البرزانيين طبعًا وليس لأي سبب آخر، وقد جاملني كثيرًا وتودد لي وكأنه كان يعرفني منذ زمن طويل، وبشرني أنه قد أرسل بطلب حضور ممثل حزب البرزاني من المبارزين حسب تعبيره من داخل مدينة الرضائية من أجل أن يستلمني أنا والاثنين الآخرين بشكل رسمي... فقلت في نفسي: هل من الممكن

أن أستحق هذه الرحمة الكبيرة من ربي؟ ولم لا؟ وأنا لم أخن بلدي وقلت كلمة الحق وكنت صادق فيها في بلد معاد دون خشية أو خوف، والله ناصر لعباده الصادقين وهو الذي يعلم بما تخفيه الصدور.

حينها لازمني إحساس وهاجس خفي، وكأن أحد كان يهمس بأذني ويقول لي: إن هذه الرحمة مشروطة بالوعد الذي كنت قد ألزمت نفسك به، وأشهدت عليه ربك، بالعودة لوطنك من غير خشية للعواقب، ولا تغرك الحرية التي أنت فيها فتتراجع عما تعهدت به... لقد كان ذلك الصوت الخفي هو صوت الضمير بلا شك وهو يناديني ليذكرني بوعدي ويحذرني من النفس الإمارة بالسوء، وبعد كل تلك الهواجس التي انتابتني قضيت وقتي بانتظار من سيأتي من جماعة حزب البرزانيين ويستلمني.. ولم ينفك ذلك الضابط الشاب الذي كان يتكلم معي بكل ود بالفارسية تارة، وبالقليل من الإنكليزية تارة أخرى لأني أخبرته بمعرفتي لمفرداتها، وكذلك كان هو أيضًا ولكن بمستوى معرفة أقل، ولم أحترس من التكلم بالإنكليزية هذه المرة لأن الموضوع كان قد أشرف على نهايته لأخرج من ذلك الكابوس المرعب، لقد كان يبدو أن ذلك الملازم الشاب كان يلاطفني من أجل إزالة ما قد ترسب بنفسي جراء تلك المعاملة القاسية التي تلقيتها خلال تلك الفترة المنصرمة من تواجدي بذلك البلد اللعين، حتى إنه لشدة ارتياحه واطمئنانه لجانبي، قال لي بصوت منخفض بعد أن تلفت ذات اليمين والشمال ليتأكد بأن ليس هناك أحد آخر بالإمكان أن يسمعنا:

– يبدو لي أن المعيشة في العراق أفضل من إيران، لأن الحياة هنا قد أصبحت لا تطاق ولا تساوي شيئًا لانعدامها من كل مباهج الحياة الدنيوية، بعد أن أصبح الجميع ينادي بالحياة الآخرة، حتى أصبحت مفردة الحرام هي الطاغية بكل الخطب، في الوقت الذي قلت مفردة الحلال بقواميسنا...

ثم اقترب مني أكثر وهمس في أذني:

– كالويسكي مثلاً والملاهي الليلية التي كانت منتشرة عندنا في العلن وأصبحت الآن تدار في الخفاء فقط لأولئك المتنفذين في الحكم فقط...

وعند ذلك الحد من سماعي لكلامه وهو يهمس بالقرب من أذني ضحكت عميقًا وكأني قد أمضيت دهرًا من الزمان لم أجرب الضحك فيه، لما كان عليه ذلك القول من تفاهة، لأنه لم يكن المقياس الصحيح التي تقاس به الأوطان، وقلت له ممازحًا:

– حرام عليك يا رجل أن تقول هذا.

فضحك وقال:

– وأنت أيضًا تبدو من خطباء الترويج للحرام؟!

وأثناء ذلك دخل إلى دائرة الاستعلامات شخص بمتوسط العمر يرتدي البنطال والجاكيت ليقطع حديثنا ويرحب بي، لأنه قد عرفني من خلال الزي الكردي الذي كنت أرتديه وأنا معتمر للكوفية الحمراء برأسي على طريقة اللفة البرزانية الباهدنانية، وعرف نفسه لي أنه يدعى جهاد، وهو ممثل الارتباط ما بين حزبه وحكومة ملالي إيران... فأخبرته بلغتي الكردية الركيكة باللهجة السورانية غير المعمول بها لكل الأكراد من الباهدنانيين هناك، بشكل موجز وقصير عن ما كان من أمري عند اعتقالي في قضاء مريوان المحاذي للحدود العراقية، وبدا عليه أنه لم يكن مهتمًا بمن أكون وماذا حصل لي، وقال لي باللهجة السورانية التي هي غير لهجته البادنانية:

– يظهر أنك قد تعلمت اللغة الكردية حديثًا وهي ليست لغتك بالتأكيد..

فقلت له:

– هي لغة أبي وكل أجدادي لكني مولود في بغداد وعشت وترعرت فيها أيضًا.

– أنا أعرف العربية جيدًا وبإمكانك التكلم معي بها إن شئت.

فقلت بالعربية:

– لنخرج أولاً وفي الطريق نستطيع أن نكمل حديثنا.

–من هذين الشابين؟

وكان يقصد زملائي المجانين، فقلت:

– لا أعلم عنهما سوى إنهما قد سافرا معي من طهران وقد تبين لي قبل ساعة فقط أنهما سيسلمان إليكم على ما يبدو، وحقيقة ليس لي علم إن كانا كوردًا أم عربًا أم هما من قومية أخرى.

فسأل صاحبنا المدعو جهاد ضابط الاستعلامات عنهما فأخبره:

– إنهما بحسب الكتاب الرسمي الذي تلقيته محولين للتحقيق عندكم.

عندها وقع جهاد على استمارة باستلامنا نحن الثلاثة، وأستلم أوليات كل منا من التي أرفقت بذلك الكتاب الرسمي ثم التفت إلي قائلاً:

– حسنًا لنذهب لمقري وهناك سنوفر لكم عربة لاندكروز نرسلكم بها إلى مقر القيادة العام للحزب، ما دمنا في بداية النهار لأنه يقع بضواحي الرضائية وليس بداخل المدينة، وبذلك أكون قد أنجزت مهمتي هذه لأن عملي محصور برعاية اللاجئين الكورد في هذه المدينة.

بعدها ودعت ذلك الضابط الإيراني الشاب وشكرته على حسن ضيافته لنا فقال:

– على الرحب والسعة وتذكر إذا احتجت إلى أي شيء فتعال إلي من غير تردد، وأنا متواجد هنا بصورة دائمة أثناء الدوام الرسمي، وما عليك سوى أن تطلب ذلك من الجنود الحرس في الباب.

عند خروجنا للشارع مشيت أولى خطواتي من غير قيود أو حراس يقودوني وقلت بيني وبين نفسي: بسم الله الواحد الأحد أبدأ بأولى خطواتي رجوعًا

للوطن الغالي، باسمك اللهم أتوكل عليك وأنيب لك أمري فانصرني ووفقني يا رب العالمين، وأتمم علي نعمتك إنك مجيب الدعاء بعد أن نجيتني من القوم الظالمين، إنك أعلم بما تخفيه الصدور.. وهتفت في سري أيضًا بحرقة فؤاد مرحى يا عراق إني قادم إليك يا بغداد لأكحل عيوني بتربة أرضك الطاهرة الزكية والله هو المستعان..

ركبنا بعدها السيارة الخاصة لذلك الرجل البارزاني الذي استلمنا من الجيش الإيراني.. وكانت متوقفة خارج تلك الثكنة العسكرية بوسط البلدة، ومضينا معه بعد أن كادت الأرض لا تسعني من شدة الفرحة، كوني أصبحت طليقًا من جديد، وقد أحسست حينها بمدى ثمن الحرية التي لا نقدرها عندما نعيش بظروفنا الاعتيادية، مع فارق كبير بمستوى الإدراك والوعي الذي أصبحت عليه من خلال تلك المحنة العسيرة التي مررت بها خلال تلك الفترة القصيرة، وبالتالي جعلت مني إنسانًا ناضجًا آخر، غير ذلك الإنسان الذي كنت عليه يوم اعتقالي في مريوان وما قبلها، عندما كنت أتصرف على سجيتي من غير تحسب، عندما كنت أحلم بتحقيق هدف تبين أنه صعب المنال وإن كان مشروعًا وعلى صواب تام، حتى شبهت نفسي، مفترضًا: أنني كالذي كان يتمشى على ساحل البحر الذي بدا له هادئًا وهو مسترخي بمشيته، ثم اجتاحته أمواج الإعصار العاتية التي داهمته بشكل مفاجئ لترميه وسط البحر الهائج، ليجد نفسه بمأزق لا يملك فيه سوى أن يبذل قصارى جهده من أجل أن يبقى عائمًا فقط ولا يغرق، على أمل أن تعيده إحدى تلك الأمواج المجنونة إلى ساحل البحر من جديد إن بقي صامدًا، قبل أن تخور قواه إلى حيث الأمان والاطمئنان، وبعد صموده المفترض سيجد نفسه قد أصبح سباحًا ماهرًا خبيرًا بما تخبئه الأقدار، ومختلفًا عن ذلك الذي لم يتحسب لما كان يدور حوله من أخطار.

هكذا كنت وما أصبحت عليه عندما شبهت نفسي بذلك الشخص الذي افترضت أنني هو، مع فارق اختلاف عواقب الرجوع وما سينتظرني لو تمكنت من الرجوع لرحاب الوطن من جديد لمثل حالتي.. فذلك الشخص الافتراضي رجع إلى ساحله الذي وجده هادئًا ووديعًا، وأنا بشخصي الحقيقي عائد إلى نفس النقطة التي كنت أقف عندها قبل أن يأخذني القدر عندما كنت في بغداد. وهناك احتمال أني قد أجد هناك من ينتظرني ليزايد على وطنيتي ويشكك بنزاهتي، وهو أمر لم يعد ذو أهمية في حساباتي حينها، لأن الرجوع للوطن هو النصر بحد ذاته، وهو أمر مفروغ منه كقرار لا رجعة عنه.. وفي كلا الحالتين، أنا والشخص الذي ضربته كمثل؛ لم يكن لدينا خيارًا آخر سوى الرجوع للوطن العزيز. وإذا ما صدقت ظنوني بما سألقاه من سوء في المعاملة الخشنة إن لم أعذب هناك بقسوة؛ فذلك أمر أستحقه وأقر به سلفًا، لأنه سيكون تحصيل حاصل لما جنيته أنا على نفسي.

ناهيك عن أن هذا الافتراض سيكون على أيادي من هم أهلي وأبناء وطني، وليس على نفس الشكل السقيم الذي جنيته من هؤلاء الفرس الملاعين، مع خشيتي من هاجس آخر بأن أقع مجددًا هناك في بغداد، بيد نفر من أولئك الخونة الذين يدَّعوا الولاء جهارًا للوطن، وفي سريرة أنفسهم ينظرون بعين التعاطف والولاء لإيران، لاعتقادهم أنها المعبرة عن ما تشعر وتؤمن به نفوسهم المريضة من ولاء مذهبي، إن لم يكونوا على نفس شاكلة أولئك العملاء مزدوجي الولاء من الضباط، الذين تعرفت على خياناتهم من خلال تسليم أنفسهم باتفاق مسبق مع الفرس، عن طريق تنظيمات حزب الدعوة العميل، على الرغم من أن رتب بعضهم كانت عالية ويشغلوا مناصب أمنية بوحاتهم العسكرية، لأن تسللهم بين صفوف حزب البعث هو بغاية مصلحية من غير أن يعلموا، أو هم على علم أن مشروع الفرس هو توسعي قومي عنصري

صرف... تلك كانت من أكثر المآسي التي اطلعت عليها أثناء فترة وجودي مع إخوتي الأسرى، حتى إنني كنت أخشى على العراق منهم، لأنهم كالسرطان الذي ينخر بجسم صاحبه من غير أية أعراض جانبية توحي بالخطر، حتى يتمكن من كامل الجسد ثم يجهز عليه دون رحمة أو سابق إنذار ليقتله بضربة قاضية جبانة... وهذا الأمر تبادر لذهني أول نيلي لحريتي بتلك اللحظات، وقلقت كثيرًا لما قد ألقاه عندما أقع بأيدي البعض منهم، وهم على ما بدا لي كثيرون ومنتشرون بكل مفاصل الدولة العراقية، وهذا ما تكشف لي خلال تواجدي هنا في إيران.. الأمر الذي لم أستطع أن أسقطه من حساباتي أثناء العودة التي أصبحت أمرًا محسومًا وغاية حتمية.. فبدأت بوضع الخطط لكيفية العودة أول ما علمت بأني سأكون حرًا طليقًا بذلك اليوم المشهود، الذي كان مصادفًا لليوم السابع المتبقي من تلك السنة لعام ١٩٨٢، حتى خلصت إلى نتيجة مفادها أن أتوكل على الله وهو سبحانه من سيتدبر أمري بعد أن نجاني من أولئك القوم الظالمين..

وعليه فإنني يجب علي أن أحصر كل تفكيري كخطوة أولى مهمة للخلاص وأنا بأقصى الشمال الإيراني المحاذي للحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي حينها، من خلال دراسة الجغرافيا والعراق لم يكن قريبًا بتلك النواحي على الغرب من إيران، لأن الحدود الغربية هنا كانت مع تركيا وليس مع الوطن العزيز كما كنا في بداية اعتقالي في قضاء مريوان غرب إيران وعلى الحدود مع العراق.. بمعنى أن هذا المكان هو شمال المثلث العراقي التركي الإيراني بمسافة بعيدة جدًا، وهذا يعني أنني كنت أرى أن الوطن الغالي بعيد جدًا عن موقعي الذي كنت فيه بمدينة الرضائية، وهي منطقة كوردية يعيش عليها الأكراد الإيرانيين بنسبة عالية ويليهم بنسبة العدد التركمان، ومن بعدهم الفرس وقليل من الأذريين.

واستنادًا لذلك، ومن أجل أن أحصر توجهي بهدف معين حتى لا تتشتت أفكاري وأرى أن الرجوع للعراق قد يكون مغامرة أو مجازفة صعبة المنال؛ فإني اتبعت طريقة هونت فيها الأمر على نفسي لبُعد المسافة الشاسعة التي كانت بيني وبين أرض الوطن، وذلك بأن أجعل كل تفكيري منحصر بإقناع قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني بالرجوع لمجموعتي في كوردستان العراق، ولدى نجاحي سأعمد بالعودة لقضاء مريوان الحدود المحاذي لأرض العراق من جهة كردستان، وذلك بالتوجه جنوبًا عبر اجتياز العديد من المدن الكبيرة والمحافظات الإيرانية، كمرحلة أولى لا يتوجب علي أن أفكر بسواها من بقية المراحل، والمرحلة الثانية ستكون بالتأكيد هي العبور إلى كوردستان العراق التي لم أضع الخطة لها، لأنه سيكون لدي متسعًا من الوقت الكافي بوضعها وأنا بذلك الطريق الطويل إلى مريوان وليس الآن، فالوقت كان مبكرًا على ذلك.

والمرحلة الثانية ستبدأ بالتأكيد عندما أنطلق من مريوان لأعبر الحدود على الشكل الذي سأرسمه بعد نجاحي بوصولي لمريوان، وعندها ستكون لي حتمًا خطة أتبعها من أجل أن أصل إلى محافظة السليمانية الحبيبة وبحسب الوقائع التي ستحدث هناك، أي بعد اجتيازي للحدود الدولية ما بين العراق وإيران، متحاشيًا التسرع والخوض بأي مجازفة من التي قد تعرضني للخطر وأنا في طريقي إلى أرض الوطن العزيز، في المنطقة التي كانت خارج سلطة الحكومة العراقية، ثم وضع خطة من أجل تسليم نفسي للسلطات الأمنية العراقية بداخل محافظة السليمانية كمرحلة ثالثة وأخيرة بعونه تعالى..

وما سيترتب علي بعدها عند وصولي سالمًا، وما سيحصل لي بسبب طرح كل أوراقي علنًا هو أمر لا ينبغي لي أن أفكر فيه على الإطلاق، لأن مهمتي حينها تكون قد انتهت بعد أن أوفيت بعهدي لربي ولضميري ولوطني، وانتصرت

بعون من الله عز وجل. وبافتراض أن أسوأ أمر قد يحصل لي هناك هو أنني سأخسر حياتي؛ فأنا قد نذرتها مقدمًا قربانًا لتربة وطني الطاهرة، والموت شهيدًا في سبيلها هي منزلة ليست من بعدها منزلة، خصوصًا أني حينها سأضمن دفن جثتي بأرض أبائي وأجدادي، وتلك أمنية وجدتها مستحيلة عندما كنت بقفص الأسرى العراقيين بطهران الخسة والنذالة الفارسية اللعينة..

لقد كنت أخطط لكل تلك المراحل وكأني كنت أرى من أمام عيني شريطًا يصور لي جميع تلك المراحل، التي لم أفكر بها بسابق أيامي عندما كنت حبيس الزنازين والأقفاص، وأنا الآن بعجلة من أمري لتدبير ذلك قبل أن أصل إلى مقر قيادة الحزب الديمقراطي، وبالتالي يتوجب علي أن تكون لي خطة جاهزة وتخطيط مسبق للبدء بتنفيذها من هناك...

وكنت قد تفكرت بكل ذلك السيناريو وطبعت ما وصلت له من خطة بثلاث مراحل بعقلي، عندما كان المدعو جهاد يقود سيارته التي أوصلنا بها إلى مقره بمنطقة منعزلة داخل المدينة، عقب استلامي من دائرة الانضباط العسكري للجيش الإيراني قبل نصف ساعة من ذلك الصباح، ومقره هذا كان وسط مجموعة من هياكل العمارات السكنية التي لم ينجز بنائها، وتسكنها أعداد غفيرة من عوائل اللاجئين الكورد العراقيين من البرزانيين أو من ينطقون باللهجة الباهدنانية للغة الكوردية، وكانت تسميتهم في إيران باللغة الفارسية هي بناهنده وتعني اللاجئين.

وهناك بمقر جهاد الذي كان أشبه بدكان صغير وسط مجموعة تلك العمارات غير المكتملة البناء، فأرسل جهاد بطلب أحد أعوانه ويدعى أحمد من أجل إيصالنا بسيارته إلى مقر القيادة المزعوم الكائن بخارج المدينة، وحينها أخذ زميلي المجنونين اللذين كنت بصحبتهما بالخروج عن هدوئهما وحاولا التملص

من ذلك المكان بنية الهروب، وذلك تصرف لم يمارسوه طيلة فترة سفرنا المارثوني من طهران إلى الرضائية، وعندما وجدوا أن موقفًا حازمًا قد اتخذ ضدهم؛ انصاعوا له مستسلمين بعد أن وجدوا أن لا مجال للهروب من وسط تلك المجموعة الكبيرة من الناس بتلك البقعة المنعزلة عن المدينة، فتألمت لحالهم كثيرًا وشعرت بما كانوا يشعرون به على الرغم من عدم علمي بأي معلومة عنهم، لأن الحرية هي منال وغاية أي كائن بشري يحترم نفسه وإنسانيته في هذا العالم..

وعليه فقد مضينا مع المدعو أحمد – وهو أحد مساعدي جهاد – في مكتبه، وانطلق بنا بسيارته الجيب المدنية من غير أن يدور أي حوار بيننا على طول الطريق الموصل ما بين الرضائية ومقر قيادة الحزب الديمقراطي بتلك الضواحي حيث القرى والأرياف، لأنه كان منشغل بقيادة سيارته من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت أنا بدوري منشغل أيضًا بما كنت أخطط له بعقلي، لأثبت ما تراه عيني من تلك العلامات الدالة التي مررنا بها على طول ذلك الطريق، وهي شواهد ثبتها وطبعتها بذاكرتي من أجل ألا أتوه عن طريقي باحتمال رجوعي وحيدًا بأمل الخلاص منهم.

حتى وصلنا إلى منطقة مفتوحة الأفق وفيها بناية قريبة من الشارع العام وكانت تقبع وحيدة هناك، فتوقفنا عندها، وتلك البناية كانت شبيهة بالثكنة العسكرية، فدخلناها بعد أن تخطينا حراسها الذين توزعوا على منافذها، وكانت تلك البناية من الداخل عبارة عن باحة كبيرة تطل عليها العديد من الغرف، التي علمت فيما بعد أنها كانت مكاتب لهم، باستثناء واحدة منها كانت غرفة استراحة وطعام للمنتسبين ومنام للضيوف، وتدعى باللغة الكردية الميوان خانه، وهناك بغرفة الضيوف التي دخلناها وجدت بعض الأشخاص من اللاجئين

الكورد البارزانيين بإيران منذ عام ١٩٧٥، وقد جاءوا لذلك المقر بغية طلب المساعدة للحصول على مبلغ مالي يسدد تكاليف علاج أحدهم، أو التوسط من أجل أن تتشفع لهم القيادة بإطلاق سراح سجين لهم معتقلاً عند الفرس.

مكثنا هناك وافترقنا عن المدعو أحمد الذي جاء بنا بعد أن سلم أوراقنا إلى دائرة مكتب قيادة الحزب الديمقراطي، ليرجع عائدًا إلى مدينة الرضائية حيث مقر عمله وسكنه لدى رئيسه المدعو جهاد، وفي صالة الضيوف كان هناك شخص كبير في السن كان شغله منحصرًا بخدمة الضيوف، من خلال تقديم الشاي ووجبات الطعام بمواعيدها للضيوف والمنتسبين على حد سواء، وهو رجل طيب ولم يكن له دخل بكل ما كان يجري من سياسات هناك، جلسنا بانتظار أن يستدعينا أحد المعنيين بأمرنا بعد أن تعرفت على كافة الموجودين، وعرفت لهم نفسي على أنني مقاتل مثلهم ولكن في العراق، ولكن زميليَّ المجنوين لم يصبرا على الانتظار، فاستعرضا جنونهما بأفعال وتصرفات سخيفة ومكشوفة ومبالغ بها، الأمر الذي كسر سكون ذلك المكان وأحدث فوضى، تمَّ على أثرها استدعائنا للتحقيق من قبل مسؤولي تلك الإدارة بمكتبهم المجاور لصالة الضيوف التي كنا فيها...

كانوا أربعة أشخاص يرتدون الزي الكوردي، من غير أن أعلم أو أتحسب أن قرار أولئك الأربعة بحقنا عند التحقيق؛ قد يقودني لسجن كبير كان متواجدًا بذلك المقر، بعلم وبمباركة وثقة فارسية، وهو أمر علمته فيما بعد ولم أكن متحسبًا له عندما تكلمت معهم بكل ثقة، فخاطبني أحدهم باعتباري العاقل الوحيد منا نحن الثلاثة ليسألني عن موضوعي ومن أكون، فأخبرته باللغة الكوردية التي لم أكن أجيدها مثلهم حينئذ، بكل ما جرى لي في قضاء مريوان، الأمر الذي تسبب بسجني طوال فترة الثلاثة أشهر الماضية، من غير أن أذكر

لهم أني كنت متهمًا بالجاسوسية كتهمة كيدية جراء رفضي للالتحاق بقوات الغدر والخيانة من حزب الدعوة وقوات المجلس الأعلى، ولم أذكر لهم طبعًا تواجدي بأقفاص الأسرى العراقيين، وذلك من أجل أن أصغر حجم الموضوع لأجعله يبدو وكأنه مجرد مشادة كلامية بسبب حوار سياسي كوردي فارسي، مع شخص من الپاسدار وانتهى بسجني، وهو أمر مألوف واعتيادي في إيران بظل نظام حكم الملالي الشيطانية هناك.

وعند انتهاء إجابتي لسؤالهم سألني أحدهم مستفسرًا عن سبب طريقة لكنتي الضعيفة باللغة الكردية، وإذا كنت من جماعة الكورد الفيليين، فأخبرتهم بحسب ونسب والدي المولود بمدينة السليمانية، وهو من عائلة عريقة ومؤسسة لمدينة السليمانية، وذكرت لهم أسماء أبناء عمومته وكلهم من الأعيان المعروفين هناك، فتعرفوا عليهم، وذكر لي أحدهم أنه كان يعمل عند بعضهم بمشروع اقتصادي في السليمانية، فحمدت ربي كثيرًا على تلك المصادفة وتنفست الصعداء لأني حينها شعرت بمأزق حقيقي لو لم يتعرف علي أحدهم من خلال أقاربي وهم من أعيان مدينة السليمانية.

عندها تكلموا معي بود، وطلبوا مني إكمال تفاصيل اعتقالي في مريوان باللغة العربية من أجل أن يفهموا موضوعي بوضوح أكثر، ففعلت بعد أن رميت الكرة بملعبهم وقلت: أنا دافعت عن أهلي الكورد بالضد من مزاعم ذلك الپاسدار الذي ذكر لي أنكم أُجراء، تقبضون الأجر منهم جراء أعمالكم النضالية. وذكرت لهم متعمدًا أن ما أصابني من سوء كان بسبب دفاعي عن كاك مسعود البرزاني كقائد ثوري، فسكتوا جميعهم ولم ينبثوا ببنت شفة، وعندها تيقنت أنهم لم يستلموا من الفرس أية معلومات عني، وانتهزت الفرصة، والأيام العصيبة قد علمتني الكثير، فاستطردت لأسألهم بدوري:

– هل الكتاب الحزبي لنقلي إليكم ضمن الأوراق الخاصة بإطلاق سراحي من التي كان مندوبكم في الرضائية قد استلمها من دائرة الانضباط العسكري هناك؟

فقالوا:

– لا يوجد شيء من هذا القبيل، ونحن على أية حال لسنا بحاجة إلى أي كادر سياسي للعمل معنا هنا بمقر القيادة العامة للحزب، ولسنا بحاجة للاطلاع على تلك الأوراق أيضًا، لأننا عرفنا الآن من تكون.

انزاحت بقولهم هذا همومي التي كانت جاثمة على قلبي بكيفية الخلاص منهم، وهم الذين اعتقدوا أنني كنت أبغي البقاء عندهم بموقعهم الذي سيضيف إلى سجلي الشخصي مهانة أكثر، ولكن التعصب للشفافية والصراحة ركب رأسي مرة أخرى، وتناسيت أن ذلك المكان لم يكن يسمح بهذا المنهج الذي هو عنوانًا لشخصيتي لدى كل من يعرفني عن كثب، وقلت لهم:

– وأنا أيضًا لست براغب بالبقاء بمقر متواجد في إيران، لأني لم أعد آمن على نفسي من تلك المفاجآت المفجعة التي يمارسها الفرس لكل من يدافع عن القومية الكوردية، التي أنتم حتمًا عاجزون عن التصدي لهم، كما حصل معي بمريوان، ودفعت أنا الثمن باهظًا بسبب ذلك.

عندها قالوا لي من غير أن يهتموا لما قلت:

– إذا لم تعد لك الرغبة بالمواصلة والاستمرار على نهجك كمقاتل؛ فإننا سنسهل لك عملية تقديم اللجوء الرسمي في إيران من أجل أن تعيش بسلام، وبعدها ستتمكن كأي لاجئ هنا من السفر للخارج، لتعيش في إحدى دول أوربا بكامل حريتك، والأمر بسيط جدًا، وذلك من خلال تسليمك نفسك لدائرة الانضباط العسكري بمدينة الرضائية، وأخبرهم أنك من طرفنا وسيسهلوا لك الأمر.

فقلت لهم:

– بل أنا أفضل أن أرجع إلى نفس المجموعة القتالية بناوچة ماوت على أرض كوردستان العراق، قبل أن يصدروا كتاب نقلي إليكم وانتهى بي الحال على الشكل الذي علمتوه بدخولي العديد من الزنازين الفارسية، ذلك لكي أنعم بالحرية وأمشي على طول هامتي من غير أن أجبر على الخضوع لأي كائن كان، أو أن أكمم فمي من أجل ألا أقول كلمة الحق التي يفترض أننا أول من يعمل على إعلائها.

قالوا وقد بدا عليهم الملل مما سمعوه مني عن عبارات الحرية... إلخ، وكأنهم قد تصدقوا علي نيلي لحريتي باعتبارهم مسؤولين وصاحبي قرار نافذ:

– لا مانع لدينا من أن ترجع لمجموعتك بكوردستان.

– حسنا أحتاج لمبلغ من المال يكفيني للوصول إلى مقر فرع الحزب بقضاء مريوان، إضافة لحاجتي لورقة عدم التعرض منكم تؤمن وصولي دون اعتراض السلطات الإيرانية لي على طول الطريق.

فادعوا أنه ليس لديهم تخويل بصرف أي مبلغ مالي من أجل سفر أي منتسب لهم، وقالوا لي بالحرف الواحد:

– تلك مسؤوليتك، وكذلك ليست لدينا الصلاحيات بإصدار أوراق عدم تعرض مهما كانت نوعيتها، حتى لو كان السفر من هنا وحتى داخل مدينة الرضائية القريبة علينا، لأنها من اختصاص السلطات الإيرانية فقط.

ولدى ذكرهم لكلمة السلطات الإيرانية برقت أمام عيني صورة ذلك الملازم الشاب الذي تعرفت عليه في استعلامات دائرة الانضباط العسكري بداخل مدينة الرضائية باعتباره كان قد عبر عن استعداده لتقديم المساعدة إن احتجتها مستقبلاً، وأنا بذلك الموقف كنت بأمس الحاجة لمساعدته، بتزويدي بتلك الورقة التي تتيح لي السفر لقضاء مريوان بشكل آمن ويسير، أما المال فإنني

سأذهب لمقر المدعو جهاد بداخل مدينة الرضائية من أجل الحصول على المال اللازم للسفر بعد أن أحتال عليه وأخبره بأني مرسل من قبل القيادة العامة له لتسهيل أمر سفري للالتحاق بمجموعتي في كوردستان العراق.. ليقيني التام أنه ليس لديه اتصال مباشر بينه وبين مقر القيادة، وأنا لن أعتبره احتيالاً بالمعنى المتعارف عليه، لأنهم فعلاً سمحوا لي بالرجوع لمجموعتي بكوردستان العراق، وأنا لم أكن أملك فلسًا واحدًا بجيبي، والتجربة القاسية علمتني من الدروس الكفاية التي تتيح لي التصرف بحكمة وحذر بمثل تلك المواقف.

بعد صمت لوهلة فكرت فيها بشكل سريع بكل ما ذكرته بأعلاه قلت:

– حسنًا.. سأغادر بصباح الغد رجوعًا لقضاء مريوان، والله وحده هو من سيعينني على هذا الابتلاء.

عندها ظنوا أني كنت أقول ذلك الكلام من باب المكابرة فقط ولست جادًا بتنفيذه، لأنه من الصعوبة بمكان أن يقطع أي شخص غريب تلك المسافة الشاسعة بإيران من غير حيازته لأي أوراق ثبوتية تثبت هويته. وعندها انتهى الحوار بيننا بعد أن سمحوا لي بمغادرتهم على النحو الذي شرحته، وهو اتفاق كان مرضيًا للطرفين، لأنني لم يكن يشرفني البقاء للعمل معهم، وهم بدورهم لم يريدوني كذلك، وبذلك كنت قد تخلصت منهم وهم أيضًا قد تخلصوا مني.. وحينها تنبهت إلى أنني لم أكن وحدي معهم، بسبب أن زميليَّ المجنونين كانا التزما الهدوء بدرجة عالية من ضبط النفس حتى نسيت تواجدهما معنا، وقبل أن أغادر غرفة التحقيق متوجهًا لغرفة الضيوف، سألني أحد أولئك الرفاق المزعومين: نريد أن تخبرنا ما تعرفه عن هذين الشابين؟ فقلت لهم جملة واحدة كنت قد درست صياغتها سلفًا، من أجل ألا أتسبب بإيذائهما، لأني كنت

أعلم بحدسي أنهما ليسا بمجانين، وإنما هما شخصان اعتياديان ويبدو عليهما أنهما قد وقعا بورطة ما، والله أعلم، فقلت:

– أنا لا أعرف عنهما أي شيء بالمرة، وما جمعني بهما كان صدفة وطريق سفر ليس إلا.

فبادر أحدهم بسؤال أحد المجنونين:

– كم الساعة الآن؟

فتطلع ذلك المجنون لساعة يده بصورة لا إرادية، ولكنه استدرك نفسه وأحجم عن الإجابة، وكأنه لم يفقه فحوى السؤال الموجه له. وعند هذا الحد انتهت تلك المقابلة السقيمة وسمحوا لي بالذهاب إلى غرفة الضيوف بعد أن اتفقنا أنهم لا يمانعوا من عودتي لمجموعتي بكوردستان العراق من غير أن يساعدوني على ذلك.

وعندها كان قد حان موعد تناول الغداء الذي أعده ذلك الرجل الطيب الكبير في السن، أكلت حتى شبعت سريعًا، لأن معدتي لم تسعفني بتناول الطعام الذي أشتهي تناوله، ولكني أكتفيت بالقليل منه بعد تقلصت معدتي ولم تعد قادرة على استقبال وجبتي طعام بيوم واحد، بسبب أزمة الجوع التي مررت بها، وكأنها كانت أشبه بالصيام الذي لا يليه إفطار كنت أحتاجه ككائن بشري ولعدة أشهر، وبعد أن حان وقت شرب الشاي العراقي المهيل الذي كنت قد حرمت منه على طول الرحلة، وتذكري لما كنت عليه الليلة الماضية وما أنا عليه الآن، سبحت بحمد ربي بعد أن غير حالي على ذلك الشكل من التغيير الجذري.

أثناء تلك الجلسة سألني الحضور من الضيوف والمنتسبين، ومنهم ذلك الرجل المسن الطيب الذي كان يقوم بخدمتنا جميعًا عما حصل معي في الإدارة، فقلت:

– لقد وافقوا على رجوعي لالتحق مجموعتي القتالية بكوردستان العراق، وأكملت قائلاً: لكنهم لم يزودوني بورقة أثبت فيها انتسابي لهم، أو مبلغًا من المال يغطي نفقات السفر الطويل لقضاء مريوان الحدودي.

فقال لي ذلك الرجل الكهل:

– وكيف ستسافر كل هذه المسافة الطويلة من غير أوراق بعدم التعرض أو كمية من المال؟!

– سأذهب إلى مركز مدينة الرضائية وهناك سأحاول بمساعدة إخواننا اللاجئين الذين أتوقع أنهم سيساعدوني بمسعاي هذا، ولكني لا أملك حتى المال الذي أذهب به إليهم في صباح الغد.

عندها نهض الرجل ومد يده إلى جميع من كان حاضرًا بتلك الجلسة على التوالي؛ فأعطوه كلهم ما تيسر لهم من نقود معدنية بسيطة، وتجمع لدي مبلغًا يسيرًا، علمت بعدها أنه كان ضعف ما كنت أحتاجه للذهاب إلى مدينة الرضائية، بعدها تبادل من كان حاضرًا هناك الأحاديث التي فهمت منها أن ذلك المقر كان ببعض الأحيان عرضة للضرب بالنار من خلال هجوم البيشمركة الإيرانيين بدافع الانتقام من عناصر حزبنا الديمقراطي العراقي، لأنها كانت تشارك الحكومة الإيرانية أثناء هجمات قواتها التي كانت تُغير عليهم بحملات عسكرية واسعة بتلك المنطقة الكوردية بإيران، وتقتل منهم الكثير من مواطنيهم أو من البيشمركة الإيرانين المتواجدين هناك باعتبارها منطقة نفوذ لهم، وهو أمر لم أندهش لمعرفته لأني كنت قد رأيت واطلعت عن كثب على مثل تلك الهجمات الفارسية البربرية على كورد إيران عندما كنت بسجني بقضاء مريوان الحدودي.

ولكن المستغرب بتلك الجرائم بحق شعبنا الكوردي بإيران مهما كانت مبرراتها؛ هو أن كورد العراق، وبالتحديد عشيرة البارزانية المناضلة؛ قد سبق لهم أن جاءوا إلى تلك البقاع الكوردية الواقعة على الحدود الروسية، من خلال مسيرة طويلة وشاقة جدًا، مشيًا على الأقدام بقيادة الزعيم الكوردي الملا مصطفى البارزاني، من أجل نصرة القاضي محمد الزعيم الكوردي الإيراني الذي كان ينوي إعلان قيام جمهورية للكورد وعاصمتها مدينة مهاباد، وقد هلك أثناء ذلك الطريق الطويل العشرات من الكورد الذين كانوا بقيادة الملا مصطفى البارزاني، وحال وصولهم لمدينة مهاباد تمَّ إعلان جمهورية كوردستان برئاسة القاضي محمد، ووزير دفاعه الملا مصطفى البارزاني، وكانت أول كيان مستقل للكورد بالتاريخ الحديث، بعد أن سجل التاريخ أن الميديين وهم أجداد الكورد وكان قائدهم دياكو؛ قد وحد قبائلهم وقضى على الأشوريين، وأسس إمبراطورية ميديا الكوردية ونصب نفسه إمبراطورًا عليها بثمانمائة عام قبل بدء التاريخ الميلادي، ودامت لسبعين عامًا، وسقطت على يد الفارس بعد أن توفي الإمبراطور دياكو وتولى ابنه الحكم، الذي لم يكن حازمًا كوالده ليحافظ على ذلك المُلك، ومن يومها لم يقم للكورد قائمة حتى ولدت بأربعينيات القرن العشرين جمهورية كوردستان في مهاباد بعد أكثر من ألفي سنة.

وهنا أكرِّر المقولة الساخرة: ما أشبه اليوم بالبارحة! فبالأمس غير البعيد كنا مناصرين لإخواننا في مهاباد، واليوم أصبحنا قاتلين لنفس تلك الفئة من الكورد الإيرانيين.. ولسوء حظي فإن مفارقات الصدف قد رمت بي لتجعلني أنا القادم من بغداد لأكون شاهدًا على تلك الحالة المخزية التي يندى لها جبين كل منصف وصاحب ضمير يقظ، وأنا هنا لا أسعى طبعًا لتشويه صورة بذاتها، بقدر ما هي الحقيقة التي اطلعت عليها بتلك البقاع الكوردية، ولا يمكن لي أن أقفز عليها لكي لا أذكرها، وليتكلم غيري عن هذا الموضوع وليجد له المبررات التي قد

تكون مقنعة للكثير منا، ولكني لو كنت هناك وتم توجيه الأمر لي بالاشتراك مع الپاسدار الفارسي بقتل أولئك الپيشمرگة من الكورد الإيرانيين؛ لكنت حينها قد عصيت الأمر مهما سيترتب على ذلك..

وحلَّ علينا المساء الذي تناولنا فيه وجبة طعام خفيفة، وعلمت حينها أن صاحبيَّ المجنونين قد حُولا للسجن الكائن بمعسكرهم القريب، وعندها ارتعدت فرائصي لأنه كان بالإمكان أن أكون معهما لولا رحمة ربي التي أنزلها علي، وجعل أولئك الذين نصبوا أنفسهم محققين يقتنعوا بصحة كلامي، ونمنا ليلتنا بنفس غرفة الضيوف –الميوانخانة–.

وعندما حل الصباح ودعت الجميع من الضيوف والمنتسبين، وهم بدورهم تمنوا لي سلامة الوصول، وقد شددوا على تحذيري بضرورة عدم ارتداء غطاء الرأس الكوردي الجامانة الذي كان باللون الأحمر ويرمز حصرًا لعشيرة البارزانيين، وذلك كي لا أكون هدفًا لنيران الپيشمرگة الإيرانيين باعتباري عدوًا لهم، وأنا الذي كنت ولازلت أكن لهم بقرارة نفسي بالغ الاحترام والمحبة والتقدير العالي بسبب الدور البطولي بمقارعتهم للنعرة العنصرية للفرس وحكومتهم المتمثلة بالولي السفيه.

بعد توديعي للحاضرين مررت بجانب غرفة المكتب التي يجلس بها أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مسؤولين إداريين لذلك المقر، ويبدو أنهم كانوا منعزلين عن كل الموجودين بذلك المكان، وحينها ناداني أحدهم يستفسر مني إن كنت سأغادرهم، فقلت: نعم سأتوكل على الله ذاهبًا لمقر كاك جهاد في الرضائية، ومن هناك سأتدبر أمر سفري لمريوان، فلم يحرك ساكنًا وعقب قائلاً: اتضح أن الشابين اللذين كانا معك بالأمس غير مجانين، وقد اعترفا لنا بالحقيقة. ولم أعلق بشيء لأعلم بماذا اعترفا وقد تظاهرت بعدم اهتمامي لموضوعهما، وإن كنت قد تأسفت عليهما وعلى شبابهما بقرارة نفسي.

مضيت خارجًا من ذلك المقر لأمشي تلك المسافة التي كانت تفصلني عن الشارع العام، وسط تراكم الثلوج التي كانت تكسو بقاع كل تلك المنطقة بذلك الصباح المشمس، الأمر الذي جعلني أشعر بالبرد الشديد من ناحية، وبصعوبة الرؤيا من غير نظارات سوداء من ناحية أخرى، بسبب أن الدنيا كلها كانت بيضاء ناصعة، وبنظرة خاطفة للمقر الذي كنت فيه من خلفي وجدت أولئك المسؤولين كانوا يشاهدونني من نافذة مكتبهم وأنا أسير على تلك الثلوج الكثيفة بذلك الطقس الشديد البرودة، ولو قدر لي أن أقرأ أفكارهم لوجدتهم حتمًا يفكرون أن أحدهم لو كان مكاني لن يجازف ويغامر بالمشي وحيدًا بذلك الطقس المتجمد وبمنطقة تعتبر خطرة جدًا، هذا بالنسبة لهم فماذا لو كان الأمر لرجل ليس له علم ومعرفة مسبقة بتضاريسها، أو اللغة التي يتكلم بها أهلها، فالأمر كان يبدو وكأنه ضرب من الجنون، باعتباري كنت غريبًا ولا أملك أية وثيقة تثبت هويتي، وحينها قلت لنفسي والبسمة تعلو شفاهي مستأنسًا بأنسام الحرية: فاز باللذات من كان جسورًا.

والحقيقة أنا كنت مؤمن بشدة أن جميع المصاعب التي ستواجهني بطريق عودتي للعراق ثم لبيتي؛ ستُذلل لتصبح سهلة المنال بعد أن فتحت السماء لي أبوابها مادمت سأوفي بعهدي لربي، واصلت المضي بطريقي حتى وصلت إلى الشارع الرئيسي العام، وهناك توقفت مشيرًا بكلتا يداي لكل السيارات المتجهة إلى مدينة الرضائية ولكن من دون جدوى لعدم توقف إحداها لي، ذلك لأن كل تلك السيارات كانت مليئة بالركاب للنقل العام أو الخاص، بعكس مثيلاتها السائرة بالاتجاه المعاكس للسير، الذي ليس لي علم إلى أين سيؤدي أو ينتهي، فانتقلت للجهة المقابلة من الشارع لأستقل أحدها، وفعلاً توقفت لي سيارة أجرة وصعدت إليها، مددت يدي أعطي السائق أجرته من إحدى الفئات النقدية التي معي دون أن أنبس بأي كلمة، كي لا يعرف أحد من الركاب أنني كنت غريبًا، أو

أنني ضمن جماعة حزبنا الديمقراطي، الذين ينبذه جميع أهل الرضائية من الكورد الإيرانيين وغيرهم من باقي القوميات باستثناء حلفائهم الفرس طبعًا.

وصلنا إلى نهاية خط سير تلك المركبة؛ حيث يتواجد موقف سيارات الأجرة المتجهة للرضائية، فنزلت وتبين لي بعدها أنني لو لم أنزل لكنت قد أكملت مسيرتي رجوعًا لمدينة الرضائية، وعليه فإني كنت مجبرًا لأن أتدافع مع الناس ضمن حشد هائل من الركاب على كل سيارة كانت قادمة من الرضائية بسبب عدم وفرتها، لأن ذاك اليوم كان يوم الجمعة وهو يوم عطلة رسمية، ومن شدة البرودة كان أكثر المتواجدين يراوحون بمكانهم لكي يدفئوا أنفسهم، الأمر الذي عندما كان أحدنا يطلق نفخة من الهواء كان يتجمد في الحال، كذلك التنفس كان يتجمد من مخارج الفم والأنف، وهذا ما كان يزعجني عندما تجمدت شواربي التي طالت كثيرًا خلال فترة سجني ولم أتمكن من الحلاقة طيلة تلك المدة.

أخيرًا وبعد جهد جهيد من التدافع بعنف مع من كان يزاحمني بالصعود لإحدى تلك المركبات، التي كانت تتوقف لإنزال الركاب القادمين من الرضائية؛ تمكنت أن أجد لي مكان بإحداها ومضيت إلى الرضائية، وهي مدينة كبيرة لا علم لي بمعالمها سوى أنه عند وصولي لنقطة التفتيش بمدخلها الشمالي كان يجب علي أن أنزل لكي أمضي بالطريق الذي سيكون من جهتي اليسرى، لأمشي بعدها مسافة طويلة بنفس الشارع تجاه الجنوب، بشكل مستقيم لن أحيد عنه إلى أن تتبين لي هياكل العمارات بجانبي الأيمن، وهي التي كان يسكنها إخوتي اللاجئون الكورد، وهذا ما سجلته بذاكرتي باليوم السابق عندما بعث بي المدعو جهاد إلى مقر القيادة..

عند وصول المركبة التي كنت فيها لنقطة التفتيش؛ نزلت بعدها بقليل لأكمل مسيرتي بنفسي، لأني لم أجرؤ أن أسأل السائق إن كان سيذهب باتجاه نفس

طريقي أم لا، لأني لم أكن سائحًا سهل عليه أن يسأل عن عنوان، وإنما كنت شخص غير مُعَرف بالاسم والهوية والعنوان، وبالتالي رحم الله امرئ عرف قدر نفسه، وهكذا مضيت بذلك الطريق الطويل الذي كان خاليًا من أي معالم، وكل همي هو الوصول قبل أن يحل المساء، وخلاله كنت مرة أمشي سريعًا ومرة أخرى أهرول فيها حتى وصلت إلى بدايات المناطق المأهولة بالسكان، حيث المحلات التجارية على الشارع العام، ومنها التي كانت تزين واجهتها بالزجاج المظلل الذي يعكس الصور وكأنه مرآة.

وأثناء سيري تمهلت قليلاً لكي أتطلع لشكلي كيف أبدو من خلال النظر إلى أحداها، وحينها صعقت مما رأيت! وكررت النظر لنفسي بتروي أكثر، فوجدت إنسانًا آخر، كان نحيف جدًا، وبهيئة رجل شبه متوحش بشكله، ثم أعدت النظر بملامح وجهه لأتبين مدى الشبه بيني وبينه، فوجدته معدومًا من أي شبه باستثناء العينين الغارقة بغابة كثيفة من الشعر الذي كان يغطي كل الوجه عدا شعر الرأس، الذي كان قصيرًا بسبب الحلاقة الإجبارية بقفص الأسرى، وقد كانت تلك هي المرة الأولى لي التي أرى فيها نفسي منذ أن اعتقلت بمريوان. لقد كان حقًا أمرًا غريبًا لم يسبق لي أن مررت بمثله بسابق حياتي، لأنني عندما رأيت ذلك الشبح النحيف الذي هو انعكاس لهيئتي التي كنت عليها، وجدته غريبًا عني بكامل ملامحه، وكأنه أشبه بسكان الكهوف الذين عاشوا بالقرون الوسطى في التاريخ.

على أثر ذلك تابعت المسير بذلك الطريق الطويل، بعد أن تأكد لي من بعض الشواهد التي مررت بها قبل يوم أني لم أضل عما رسمته لي الذاكرة، ومنها بناية دائرة الانضباط العسكري التي أطلقت سراحي، وعندها أخذت أسابق الزمن أحث الخطى بعد أن تجاوزت كافة المحلات التجارية والمباني المنتشرة

على جانبي الطريق، ودخلت مرة أخرى لمنطقة خالية من أي معالم حتى وصلت إلى هدفي بهياكل العمارات التي رأيتها لاحت لي من بعيد، وعند وصولي لها كان المساء قد حل بغياب الشمس، وتوجهت حينها مباشرة إلى مكتب إعانة اللاجئين الكورد فوجدت نفس الشخص الذي نقلنا لمقر القيادة بالأمس واسمه أحمد، وكان رئيسه المدعو جهاد قد غادر إلى بيته، فأخبرته بكل ما جرى معي في القيادة مع تشديدي على ذكر أن القيادة أرسلتني من أجل تأمين عودتي لمجموعتي بناوچة ماوت من خلال السفر لمريوان. فقال لي:

– تستطيع أن تخبر كاك جهاد بهذا عند عودته بصباح الغد.

– إذن سأبيت عندك الليلة حتى يأتي الصباح؟

– هذا أمر غير ممكن لأنني لا أملك أغطية لمنام شخص آخر.

– وما هو الحل برأيك؟ إذن سأبقى مستيقظًا حتى الصباح كي لا أتجمد من البرد.

فتمهل بالإجابة قليلاً ثم قال لي:

– اجلس ريثما أجد لك من بين العوائل من هو قادر على استضافتك هذه الليلة.

ذهب وغاب عني لفترة نصف ساعة، عاد بعدها مع شخص آخر كان بالعقد الخامس من عمره، وقد خط الزمن خطوطه العريضة بقسوة على ملامحه، وكذلك الفقر الشديد بمظهره البائس جدًا، وذلك الرجل كان مضيفي لتلك الليلة فتبادلت وإياه التحايا ثم رافقته إلى محل سكنه بإحدى هياكل العمارات التي لم تكتمل بعد.

في هذه الأثناء كان الليل قد عتم علينا بظلامه الدامس، لعدم وجود إنارة عامة بذلك المكان، وقد تبينا طريقنا ببالغ الصعوبة ونحن نصعد السلالم بتلك العمارة، خشية الوقوع للأسفل حتى توقفنا في الطابق الثاني عند بطانية مسدلة على شكل ستارة كانت هي بمثابة باب بيته أو شقته، فأزاحها ودخلنا لنكون وسط

فضاء أظلم، سرعان ما اجتزناه حتى وصلنا لبطانية مسدلة أخرى، أزاحها الرجل وعندها رأيت مشهدًا يتفطر له فؤاد كل من له ذرة من الرحمة الإنسانية! لقد رأيت أطفالاً صغارًا وكبارًا، أولادًا وبناتًا وعجائز وفتيات كلهم محشورين بعضهم ببعض بتلك البقعة التي تسمى غرفة، وعددهم قد تراوح بحدود الاثنى عشر فردًا، وعلى ما كان يبدو فإن مأكلهم ومنامهم واستحمامهم وطبخهم كان بتلك الغرفة البائسة، وكانوا بجلستهم تلك يتدفئوا من خلال مدفأة نفطية مهترئة، كانت تبعث بسمومها الكربونية بأجواء تلك الغرفة التي كانوا حريصين على غلق كل منافذها من أجل الدفء.

عند دخولنا عليهم صمتوا كلهم وأكاد أعلم السبب، فهو بالتأكيد لبشاعة شكلي الذي كنت عليه، جلسنا وبدأت بمحاورة مضيفي كسرًا للخجل العميق الذي شعرت به نتيجة هاجس خفي بضميري حملني الذنب والتقصير تجاه أولئك المساكين، ولم أكن أعلم لماذا انتابني ذلك الشعور وأنا الذي كنت مظلومًا مثلهم؟ وعندها تمتم مضيفي ببعض الكلمات الترحيبية، ولكني فهمت شيئًا منها لاختلاف اللهجة بين ما تعلمته من السوارنية وما تكلم به من الباهدنانية، وهذا يعني أنني سأفهم الخطوط العريضة من خلاله، وهذا هو المهم، فلا حاجة لي بفهم التفاصيل الصغيرة.

وبعد مداولات طويلة بينه وبين زوجته العجوز، فهمت منها أنه يدعوها لتحضير شيء من الطعام لي، ويبدو أنها لم تكن تملك أي شيء، ولكنها بعد قليل لم يبدو بأنها قد تذكرت شيئًا وهمت بالبحث عنه بين أغراضها المتناثرة هنا وهناك حتى وجدته، وكان علبة صغيرة من سمك الساردين، كانت هي كل ما تملك تلك العائلة الكريمة الطيبة التي قدمت لي عن طيب خاطر أخر شيء مدخر من طعامهم، والله أعلم كم من الزمن كان قد مضى عليها وهي تحتفظ

بتلك العلبة من أجل موقف كهذا... ولشدة حرجي ولتعودي على الجوع لأيام ولياليي امتنعت عن قبولي بالأكل وأخبرتهم أنني لست بجائع، وأنا فعلاً لم أكن أشعر بالجوع حينها لأنني تناولت فطوري في الصباح وكنت قد أكلت ثلاثة وجبات باليوم الذي قبله، وطلبت منهم عوضًا عن ذلك قدحًا من الشاي، فقال مضيفي الذي أحرجته عن غير قصد طبعًا بطلبي هذا:

– حتى لو كنت غير جائع فهذا عشاؤك الذي نقدمه لك كضيف عزيز، ويجب عليك أن تتقبله، مع اعتذاري لك من عدم إمكانية تقديم الشاي بسبب نفاذه لدينا، وغدًا هو موعد استلام الحصة التموينية من مكتب كاك جهاد.

وحينها اضطررت من باب المجاملة لأكل لقمة من تلك العلبة الصغيرة ودفعت بالباقي إلى الصبية الصغار الذين كانوا قد تجمعوا من حولي منذ جلوسي، فانكبوا عليها جميعًا وأفرغوا ما بداخلها برمشة عين، ثم رموا بتلك العلبة الفارغة إلى بعض الأطفال الذين أخذوا يلعقوا بأصابعهم ما علق بجوانبها من الزفر!

لقد كان ذلك المشهد المؤلم قاسيًا على نفسي، مشهد جعلني أنسى كل ما عانيت منه خلال الفترة المنصرمة من رحلتي مع العذاب، وبنفس الوقت جعلني حزينًا بعمق لأني من خلال مشاهدتي معاناة تلك العائلة المنكوبة؛ تصورت حجم المأساة الحقيقية التي كانت تقع على كاهل الفقراء من شعبي الكوردي، وما أكثرهم بتلك الفترة من الزمن، وهي بالتأكيد ليست على نفس نمط معاناتي عندما كنت أعيش في بغداد بحثًا عن الهوية المفقودة وما إلى ذلك من كلام فارغ اعتبرته بوقتها همًا كبيرًا كان يجثم على صدري، والمعاناة الحقيقية هي هنا: جوع متوارث ومزمن، إضافة لغربة قسرية مرة كالعلقم عن وطن أصبح بمهب الريح، ناهيك عن صراعهم من أجل البقاء ضمن مجتمع غريب كان

ينبذهم بكل قسوة، وهي ليست بالتأكيد كتلك الشهور التي قضيتها جائعًا بعد أن عشت عمري كله مترفًا متبطرًا على نعم الله، كانت أثنائها الرغبة بتناول ما لذ وطاب من الطعام هي عادة من أجل اللهو والتسامر بجلساتنا التي نعقدها في بغداد مع الأقارب والأصدقاء، حتى أنني تذكرت وأنا بتلك الجلسة وسط تلك العائلة الطيبة مقطعًا من حوار كان قد دار بيني وبين أحد أقاربي الأعزاء خلال تلك الجلسات، عندما كان يتباهى بانتسابه للكورد باعتباره من عشيرة الجباريين، مشددًا على ولائه للقومية الكوردية، وهو بذات الوقت كان متزوجًا من سيدة عربية كنت أكن لها شديد الاحترام والوقار، وقد أنجبت له خمسة أولاد ومنحهم هو أسماءً عربية، وبالتالي فهم لا يفقهون اللغة الكوردية شأن والدهم لأنه لا يعرفها كذلك، والحوار معه كان كالآتي عندما سألته وهو يزايد علي بأنه قد قدم لكوردستان ما عجزت أنا عن تقديمه:

– هل لك أن تذكر لي يا قريبي العزيز بماذا ناصرت القضية الكوردية وبماذا ساعدت شعبنا الكوردي طيلة حياتك المنصرمة؟

فقال متباهيًا:

– أنا من الحريصين جدًا على الاحتفال بعيد النوروز بكل عام..

تصوروا!! هذا ما كان قريبي – وهو مثقف يساري معروف – يقدمه للقضية الكوردية، كان يرقص ويأكل ويشرب نخب هؤلاء الجياع من الكورد ومنها هذه العائلة المنكوبة. وإذا سألني أحد قراء روايتي هذه ليقول مثلاً: ماذا باعتقادك يجب أن يفعل قريبك هذا لكوردستان لكي ينال رضاك؟ فجوابي هو بالتأكيد: ليحتفل هو وغيره بذكرى عيد النوروز وهذا من حقهم طبعًا، وليرفع حينها كأس النبيذ عاليًا، ولكن بشرط أن لا يعتبر هذا الحدث هو نوع من النضال ليتباهى به من باب المزايدة على أي شخص كوردي آخر سواء معي أو مع

غيري، وبدلاً من هذا كان عليه أن ينصر مظلومية البؤساء من شعبنا الكوردي حتى ولو بالكلمة الصادقة التي يطلقها حتى لو همسًا بكل محفل عائلي أو اجتماعي، أو على الأقل يعرب عن أسفه بعدم قدرته على نصرة الشعب الكوردي كما كنت أفعل أنا دائمًا بأي مناسبة تجمعني مع كل المهتمين بالشأن الكوردي، أو أن يصمت على الأقل ولا يزايد من خلال كأس النبيذ الذي شربه نخب الشعب الكوردي بعيد النوروز..

ولنرجع لمضيفي الذي سألته عن الظروف التي دفعته للهجرة إلى إيران ليقع بهذه المحنة المعيشية القاسية، فقال بعد أن غير من لهجته ليكلمني بالسوارنية التي أفهمها، بعد أن عرف أنني لا أفهم إلا القليل من الباهدناينة:

– لقد هجرنا ديارنا بكوردستان العراق على أثر حرب ١٩٧٤، بعد انهيار الاتفاق الذي كان مبرم مع الحكومة العراقية لقيام الحكم الذاتي للكورد في العراق، بسبب المعاهدة التي وقعتها العراق مع إيران في الجزائر، لترسيم الحدود بين البلدين، وقد تنازل العراق فيها عن بعض حقوقه بشط العرب، وبتلك المعاهدة تخلت إيران الشاه عن دعمها للثورة الكوردية، التي سرعان ما انهارت عندما توقف الدعم الإيراني لها كشرط مهم من شروط اتفاقية الجزائر، وعندئذ أصبحت أراضينا التي كنا نعيش فيها على الشريط الحدودي العراقي الإيراني منطقة محظورة محرمة، وهذا يعني أن كل من يتواجد عليها قد أصبح هدفًا للقتل بعد أن بسطت الحكومة العراقية سيطرتها الكاملة على كوردستان، وعليه هجرنا أرضنا بكوردستان ودخلنا إيران مع الثوار لنصبح لاجئين فيها.

فقاطعته قائلاً:

– لازلت أتذكر تلك الأيام بكافة تفاصيلها.

فأكمل حديثه قائلاً:

– لقد كانت أمورًا معلنة ومعروفة للقاصي والداني بوقتها، ولكن الذي هو غير معروف للكثير؛ هو أننا عند وصولنا إلى إيران تخلى عنا من كنا نعتبرهم قادتنا وأولياء أمورنا، فذهبوا ليسكنوا بالأحياء الراقية بطهران وتركونا نواجه مصيرنا وحدنا، وعندما كنا نلجأ إليهم مضطرين ببعض الأحيان بغرض مساعدتنا عندما يمرض أحدنا وليس لديه المال الكافي ليعالج نفسه به أو بسبب حاجته لموضوع آخر، كانوا يلبوا بعض طلباتنا عندما كان زعيمنا الملا مصطفى البارزاني حي يرزق، ولكنهم أصبحوا يهملوا طلباتنا بعد وفاته، وبذلك انقطعت العلاقة بيننا، إلى ما قبل سنتين على أثر الحرب بين العراق وإيران، ورجعت علاقة الحزب الديمقراطي مع إيران من خلال التحالف مع نظام حكمها الجديد الممثل بالملالي المتعطشة للدماء، وعندها تذكرونا وعاودوا الاتصال معنا من جديد من أجل الحصول على مقاتلين يحاربوا بهم ضد الكورد الإيرانيين، الذين انطلقت شرارة ثورتهم الكوردية ضد ملالي الفرس من مناطقنا التي نعيش بها الآن بالرضائية وبغيرها من أراضي كوردستان إيران، فانضم إليهم من انضم من شبابنا، لحاجتهم للمال الذي يلزمهم للمعيشة من خلال القتال ضد إخواننا الكورد الإيرانيين، ومن لم يتطوع عندهم؛ فقد أصبح مُحارَبًا برزقه الرئيسي للعيش، من خلال تعثر تجهيزه بالتموين الذي خصصته لنا منظمة الصليب الأحمر باعتبارنا لاجئين منذ أن دخلنا لإيران، وتوزعه علينا الحكومة الإيرانية من خلال عناصر الحزب الديمقراطي، وكاك جهاد هو أحدهم.

فقاطعته قائلاً:

– لكنهم قد يرسلون أبناءكم إلى كوردستان العراق ليصبحوا پيشمرگة مدافعين عن حقوق الكورد هناك؟

فقال الرجل وقد خفض برأسه لحجره:

– بل ليصبحوا پيشمرگة سه ره وه (أعلى، والأعلى هنا تعني إيران) وسيقاتلوا كل كوردي إيراني يرفع سلاحه بوجه الملالي الفارسية، وللعلم وعلى حد معرفتي فإن إخواننا الكورد الإيرانيين لم يرفعوا سلاحهم بوجه نظام حكم الشاه من أيام جمهورية مهاباد، لأنه تركهم يعيشون بسلام أيام حكمه لإيران.

فقلت مستفسرًا:

– هل هذا يعني أنني مصنف لديكم كپيشمرگة خواره وه (أسفل، وهذا يعني العراق) لأنني أقاتل في كوردستان العراق؟

– نعم، مع فارق أنكم هناك تقاتلون خصمًا أزليًا من غير الأكراد، وأولادنا هنا مضطرون لقتال إخوة لنا، وهم أحباء على قلوبنا وسبق لهم أن احتضنونا وقدموا لنا المساعدات عندما هربنا من كوردستان العراق، وهم اليوم يدافعون عن أرضهم وحقوقهم، وبذلك فمن يحاربهم منا هو خائن لحقوق الكورد بكل مكان شاء أم أبى، وهذه حقيقة يعرفها صغيرنا وكبيرنا، والجوع كافر بل قاتل لأطفال مثل هؤلاء..

وقد أشار بيده إلى الأطفال الذين ظلوا يلعبون بعلبة الساردين الفارغة بعد أن لعقوا حتى الماركة المكتوبة على سطحها. فقلت وكأني كنت أحاول البحث عن مخرج:

– لو كان هذا الذي تقوله قد حصل معي لما استسلمت لهم، ولذهبت لأنضم بالقتال لجانب الكورد الإيرانيين.

– وهذه أيضًا قد أصبحت مستحيلة بسبب القطيعة التي حصلت بيننا، فنحن نحبهم ومستعدون لقتلهم من أجل لقمة العيش، وهم أصبحوا لا يحبوننا وبودهم لو يشربوا من دمائنا! ولهم الحق بذلك.

فقلت محاولاً إيجاد حل آخر:

– بهذه الحالة لن أحمل البندقية من أجل هذا أو ذاك، وسأسعى من أجل الحصول على عمل شريف أترزق منه بدلاً من الاعتماد على تموين اللاجئين والسكن على هذا الحال.

– إنه أمر سهل بالكلام ولكنه صعب جدًا عندما يكون حقيقيًا على أرض الواقع، بسبب أننا أصبحنا منبوذين من قبل كل الناس هنا باعتبارنا قتلة مأجورين، ولا ننفع لأي عمل سوى أن نكون جاشًا (مطايا).

فقلت بعد أن حاصرني اليأس الممزوج بالأسى الشديد على حالهم هذا:

– أسأل الله أن يكون عونًا لكم ليخرجكم مما أنتم فيه، فالفقر وحده لم يكن كافيًا على إيذائكم حتى ابتليتم بهذه الورطة التي جعلتكم بعزلة عن أبناء جلدتكم من الكورد الإيرانيين.

فقال ذلك الرجل المسكين وقد تفجرت الدموع من عينيه:

– وليس هذا فقط، فأنا في البداية لم أشأ إخبارك أنني فقدت اثنين من أولادي بهذه المهلكة الخاسرة قبل فترة، وبقي لي هذا الفتى الذي أمامك وهو ابن الثانية عشر عامًا، وهؤلاء الصبية والأطفال هم أولادهم وبناتهم الذين تركوهم لي لأرعاهم من بعدهم، ولا أعلم إن كنت سأضطر لأن أدفع أيضًا بولدي المتبقي لي من أجل أن يكون عونًا لي، وقد يكون مصيره مثل أخواته الذين كانوا لي خير معين بشيخوختي هذه، وبرحيلهم عنا تدهورت أحوالنا جميعًا.

عندها نهضت من مكاني وقبلت رأسه قائلاً:

– بالله عليك أن تسامحنا يا عم.

– وما ذنبك أنت؟ وقد علمت البارحة أنك كنت ضحية مثلنا عندما حاولت أن تدافع عنا أثناء جدالك مع الپاسدار بمريوان، وأودعوك السجن بعد أن تخلى رفاقك الذين تريد أن تعتذر بالنيابة عنهم.

– نعم، فعلاً لقد حصل هذا معي بمريوان.

فقال الرجل بنبرة صادقة جدًا:

– نصيحتي لك يا ابن أخي أن ترجع لبيتك وأهلك قبل أن يُغدر بك مرة أخرى، فأنت شاب طيب ولا تستحق كل ما جرى وسيجري معك إن استمريت على هذا الطريق، وأنت طبعًا غير مضطر مثلنا، إضافة إلى أنك إن بقيت فلن تستطيع أن تغير من الأمر شيئًا.

– أنا أشكرك على هذه النصيحة القيمة، وأدعوا الله أن يصبرك على ما أنت فيه، ويرجعك إلى أرضك وديارك لأنه الخلاص والأمل الوحيد المتبقي لك.

فقال الرجل وقد تبسم من أجل تغيير الموضوع:

– لقد أتعبناك بكلامنا هذا الذي أرجو أنه لم يكن ثقيلاً عليك، وقد حان وقت استراحتك لتنام بمكان جهزناه لك.

– حسنًا..

ثم نهضنا من مكاننا وتبعته إلى خارج تلك الغرفة، وكان البرد شديدًا ثم أزاح بطانية كانت ستار لغرفة أخرى، دخلناها وكانت فارغة بالكامل باستثناء الفراش الذي توسط أرضيتها، ولم يكن هناك أية تدفئة، ولم يتركني الرجل إلا بعد أن دخلت للفراش وتغطيت بزوج من البطانيات، ثم تركني لأنام بعد أن أخذ معه الفانوس الذي كان ينير لنا الطريق، وما هي إلا لحظات حتى أخذت أرتجف من شدة البرد القارص، فغطيت رأسي بتلك البطانيتان المتهرئتان، وأخذت أنفخ من أجل أن أتدفأ بالهواء الساخن الخارج من جوفي، ولكن بدون جدوى لأنني كنت أشبه بمن يفترش لينام بداخل براد كبير لخزن الأطعمة... وظللت أنفخ بشكل متقطع كلما شعرت بإيذاء البرد لي حتى حلول الصباح، وكانت فرصة مثالية أن أسهر ليلي حتى الصباح من أجل مراجعة خططي التي بدأت بوضعتها على

عجل منذ ظهيرة البارحة، ولكن ذلك كان أمرًا مستحيلاً ولم استفد من هذا السهر الإجباري بشيء، لأن النفخ المستمر بغاية التدفئة كان يمنعني من التركيز بما كنت أريد مراجعته، فجعل الموضوع مشوشًا من غير تمكني بإضافة أو حذف أي شيء باحتمال أنه قد فاتني الانتباه له.

وعليه فلقد تركت خططي على حالها وأخذت أراجع ما دار بيني وبين مضيفي من حوار، فاستنتجت أن الرجل مغلوب على أمره بالتأكيد بعد أن قهرته ظروف حياته الصعبة، وكان بحاجة لشخص غريب وعابر سبيل مثلي من أجل أن يفرغ ما ثقل على قلبه من هموم طفح كيلها، لكي يشعر ببعض الراحة على أقل تقدير، أو أنه أراد أن يُبصرني بعواقب الطريق الذي كنت عليه، أو بسبب رغبته أن أنقل حكايته هذه إلى الناس الذين أعرفهم أو لا أعرفهم، وهذا ما فعلته أثناء رجوعي، وحكيت موضوعه للكثير من الناس، وحرصت على تدوينه بعد أكثر من ٣٠ عامًا ضمن مشاهداتي برحلتي مع العذاب.

عند حلول الصباح غادرتهم مبكرًا بعد أن حلقت ذقني بأدوات الحلاقة التي لدي بحقيبة الكتف التي كنت أحملها، وأبقيت على الشاربين الطويلين لعدم امتلاكي مقص أشذب به شواربي، ورتبت من هندامي ثم شكرتهم على ما استطاعوا أن يقدموه لي، وبدوره أظهر مضيفي الكريم استعداده لمساعدتي أن يرسل ولده معي من أجل أن يدلني على أي مكان أرغب بالذهاب إليه داخل الرضائية، ومنها مكتب السفريات الكائن بوسط المدينة، ثم توجهت إلى مكتب كاك جهاد ووجدته مشغولاً بالإشراف على تفريغ حمولة الأرزاق من شاحنة كبيرة كانت تقف قبالة مكتبه، وبقيت هناك حتى وجدت فرصة مناسبة وأخبرته بأني مرسل من قبل القيادة من أجل مساعدتي بتأمين سفري لمريوان. فقال:

– انتظر حتى أفرغ من توزيع الحصة التموينية على اللاجئين.

– كما تشاء.

ثم تنحيت جانبًا، وكانت فرصة لي لأرى وأتفحص جميع الوجوه الحزينة والكئيبة من اللاجئين، ومعظمهم كان من كبار السن، من أجل أن أستوعب جانبًا من المآسي التي كان يعاني منها هذا الشعب المغلوب على أمره منذ أن عرف الحياة وحتى هذه اللحظة، وهي طبعًا كانت إحدى الأسباب التي جعلتني أهجر أهلي وبيتي من أجل ما اعتقدته أنني سأشارك برسم الابتسامة على شفاه البؤساء منهم، ولكن الرياح هبت من حيث لا تشتهي السفن، بعد أن تبين لي بأن أعداء الشعب الكوردي ليسوا فقط القوات العسكرية للجيوش في العراق وتركيا وإيران وسوريا التي كانت تفتك بهم من كل صوب، وإنما هناك الخطر الأكبر؛ هم الكورد المنتفعون من بؤس وفقر وتشريد هذا الشعب من الذين توغلوا بداخل مفاصله في استعداد دون تردد لتحطيم أي عنصر يسعى بالعمل على تخليص هذه الجموع البائسة من حزنها بأي وسيلة كانت، لأنها تتعارض بل تهدد منافعهم الشخصية، وهم باعتقادي أشد فتكًا وإيذاءًا للقضية الكوردية من غيرهم سواء كانوا فرس أم ترك أم عربًا... وهذه هي الطامة الكبرى لجذور أصل المشكلة الكوردية عبر التاريخ، عندما كانت السكين الكوردية تذبح الجسد الكوردي بالوكالة على الدوام.

بقيت أنتظر المدعو جهاد ليفرغ من عمله ويلتفت لي، حتى تجمع كل اللاجئين لاستلام حصصهم التموينية، وعندها خاطبهم جهاد بكلمة مختصرة قائلاً لهم بعد أن أشار لي:

– إن هذا الرجل هو أحد أفراد الپيشمرگة خواره وه (أسفل) بكوردستان العراق، وقد تعرض للاعتقال والسجن بمريوان بسبب دفاعه عن حقوقكم، وقد استلمته البارحة بعد أن أطلقت سراحه السلطات الحكومية الإيرانية، وهو الآن يروم بالسفر للعودة لمريوان ليلتحق من هناك بمجموعته بكوردستان، ولكنه لا

يملك المال اللازم الذي يؤمن له أجور السفر، فأرجو منكم مساعدته على قدر استطاعة كل فرد منك، وسأكون أول المتبرعين.

ثم أخرج جهاد من جيبه ورقة نقدية لم أعلم كم كانت قيمتها، ودفع بها إلى مساعده أحمد الذي تولى جمع التبرعات لي، فنظر الجميع نحوي متعجبين مما سمعوه لأنهم وجدوني بقيافة مرتبة ولا يملك أحدهم شراء بدلة بالزي الكوردي كالتي كنت أرتديها، وبشكلي الذي أصبح مقبولاً بعد أن حلقت ذقني وأبقيت على شاربي الطويل الذي برمته وكاد أن يصل بطوله لأذاني، وهم قد تعودوا أن يروا من هو على شاكلتي من القياديين والدولارات تملأ جيوب شراويلهم، فمدوا أيديهم جميعًا ليعطوا ما تمكنوا عليه من مال لمساعد جهاد المدعو أحمد الذي تبنى جمع التبرعات بعد أن دار عليهم كلهم وهم بوقفتهم تلك.

شكرتهم جميعًا، وأجابوني بقولهم لا عليك فهذا واجب علينا وكلنا قد تعرضنا لنفس موقفك هذا لمئات المرات. وحينها أدركت المعنى الحقيقي لمقولة: خير العطاء هو في الوقت المناسب، لأنني لو كنت أحمل معي نقودي التي أمنتها في السليمانية وكانت خمسة آلاف دينار عراقي وهي تساوي حينها خمسة عشر ألف دولارًا، وعندها لما كنت قد ابتهجت وامتلكت الغبطة قلبي لما جمعه لي هؤلاء الناس البسطاء من قروش معدنية بالعملة الإيرانية، كانت هي كل ما تمكنت أن تجود به أياديهم الكريمة، وقد اعتبرته وقتها وحتى الآن موقفًا مميزًا بغاية النبل والسخاء.

بعد حصولي على المال الذي لم أكن أعرف قيمته من أجل تغطية مصاريف السفر وهل هو يكفي أم لا، طلبت من كاك جهاد تزويدي بورقة عدم التعرض الذي سأبرزه أثناء مروري بنقاط التفتيش من الرضائية وحتى مريوان، عندما يُطلب مني تعريف هويتي، فقال:

– لا مانع لدي من كتابتي لهذه الورقة، ولكني أعلمك أنها ليست لها قيمة وعديمة الفائدة حال خروجك من مدينة الرضائية، ولن تفيدك أثناء التفتيش بنقاط السيطرات العسكرية المنتشرة على طول الطريق.

– حسنًا زودني بكتاب حزبي معنون إلى مقر حزبنا بمريوان، تخبرهم به باستلامك إياي من الجيش الإيراني ثم تحويلي لمقر القيادة التي أمرت بعودتي إلى مجموعتي بكوردستان العراق عن طريق مريوان. وأعتقد أن هذا الكتاب سيفي بالغرض اللازم إذا ما تعرضت للمسائلة من قبل السلطات الإيرانية.

– لا مانع لدي من تزويدك بهذا الكتاب الحزبي كما طلبت وسأكتبه باللغة الكوردية.

كتب الرجل ما أمليته عليه ثم أيده بختمه الخاص بعد أن وقعه بخط يده. وأثناء ذلك انفض جميع من كان حاضرًا هناك وذهب جهاد لبيته بعد أن حل المساء، وبقيت أنا ومساعده أحمد في المكتب. فقلت له:

– كاك أحمد غدًا بعونه تعالى سأسافر لمريوان وأرجو أن تجد لي مكان أبيت به ليلتي.

وطبعًا لم أذكر له ما عانيت منه من برد جعلني صاحيًا حتى الصباح، خشية الإساءة لسمعة مضيفي الذي منحني كل ما كان يملك من طعام وأغطية للمنام أثناء استضافته لي.. فقال أحمد من فوره:

– هناك من قدم دعوة لاستضافتك لهذه الليلة فانتظره ريثما يأتي ويأخذك لبيته.

– حسنًا، وأنا شاكر لكم سعيكم الطيب من أجلي، أنت وكاك جهاد.

فقال متبسمًا:

– أنت من يجب أن نشكره ونتأسف له على كل ما عانيت منه أثناء فترة سجنك في سبيل قضية لم نحصد منها لا ناقة ولا جمل.

فقلت ضاحكًا:

– أنا عن نفسي حصدت منها الكثير من العبر والدروس، وعرفتني على العديد من الناس الطيبين، وأنتم منهم بكل تأكيد وهذه وحدها أثمن من امتلاكي لناقة أو جمل.

حينها أدركت حجم الهوة والفرق الشاسع بين هؤلاء الناس البسطاء وأولئك المسؤولين بمقر القيادة، الذين يعتبرون أنفسهم متربعين على كنز ثمين لن يسمحوا لمن هو مثلي بتقاسمه معهم، وأنا والله كنت ولا زلت لا أشتري الدنيا بكل مباهجها حتى لو كان ثمنها فلس واحد.

جلست أنتظر مجيء مضيفي الجديد ليأخذني لبيته، وكانت فرصة لكي أتدارس مع نفسي خطتي ليوم الغد بعد أن سارت الأمور معي على نحو مرضي بذلك اليوم، وقد قررت أن تكون أولى تحركاتي بيوم الغد هو ضرورة ذهابي إلى دائرة الانضباط العسكري الإيراني لزيارة ذلك الملازم الشاب الذي تعرفت عليه قبل يومين، وحينها أظهر استعداده لمساعدتي إن احتجت له، وقد جاء دورها الآن لكي يعمل على تصديق الورقة التي حصلت عليها من كاك جهاد، ومن ثم التوجه فورًا إلى كراج النقليات للسفر لمريوان، ولأنني لا أعلم أين يكون كراج السفريات بمدينة الرضائية، فكرت بما قاله لي مضيفي بليلة البارحة عن استعداده لمساعدتي بإرسال ولده معي لكي يرشدني إلى أي مكان أريد الذهاب إليه بداخل مدينة الرضائية، وهذا أول ما سأفعله غدًا صباحًا بعون من الله وتوفيق من عنده..

بعد فترة قصيرة دخل علينا شاب وسيم الشكل بهي الطلعة، فسلم علي بحرارة بالغة إلى درجة جعلتني أشعر أنني كنت أعرفه أو قد التقيت به سابقًا. وقال لي: تفضل معي فزوجتي قد حضرت لنا طعام العشاء وهي بانتظارنا. فمشيت

معه وأنا مستغرب لقوله هذه العبارة التي لا تقال إلا لمن له صلة القرابة بزوجته، وفي الطريق تبادلنا الأحاديث الودية حتى وصلنا لبيته أو شقته الكائنة بنفس هيكل تلك العمارات غير المكتملة البناء ومررنا بنفس المراحل التي تخطيتها بليلتي الماضية مع مضيفي على السلالم، حتى دخلنا إلى صالة شقته الجرداء بعد أن أزحنا الستار المعلق على بابها، ثم مضينا لندخل إحدى غرف الشقة وكانت هي كل منزله، فوجدتها على درجة عالية من الترتيب والنظافة والدفء إضافة لوجود بعض قطع الأثاث البسيط والأدوات المنزلية النظيفة والفرش الجديدة، وهناك تواجدت امرأة شابة محترمة كانت تحمل طفلاً رضيعًا على يدها، واستقبلتنا بالترحاب الممزوج بالاحترام بلهجتها السورانية، فعرفت أنها زوجته، فسلمت عليها بعد أن خفضت رأسي خجلاً من ذلك الموقف، وقلت: كيف حالك يا أختي، فردت التحية بأحسن منها، وحينها تدخل زوجها قائلاً بالسورانية أيضًا:

– هذا هو أخوك الذي كلمتك عنه وهو من نفس مدينتك في السليمانية.

فقلت ممازحًا:

– بل من نفس مدينة والدي وكل أجدادي، لأني في الحقيقة بغدادي المولد والمنشأ.

– هل حقًا ما تقول؟ هذا يعني أنك تعرف التكلم باللغة العربية التي أعرفها أيضًا وقد اشتقت كثيرًا للتحدث بها.

فقلت له ممازحًا بالعربية:

– وهي فرصة حتى لا تفهم أختي ما قد تقوله لي بالسر وقد يغضبها..

فقال ضاحكًا:

– أجل أجل هو ذاك أيضًا.

جلست بعد أن تنفست الصعداء لأني فعلاً كنت بحاجة لأن أقضي ليلتي بمكان دافئ من أجل أن أخذ كفايتي من النوم العميق، لأن ما ينتظرني بالغد هو يوم شاق وسفر طويل، إضافة لجو عائلي حميم يشعرني من ناحية بأنني وسط أهلي وأقربائي الذين ابتعدت عنهم كثيرًا، ومن ناحية أخرى يجعلني أتيقن أن بشعبي الكورد الكثير من الطيبين، وأن السيئين منهم هم أناس قلة لا يمثلوا سوى أنفسهم الخبيثة..

بعد جلوسنا بفترة قصيرة بدأ مضيفي بمساعدة زوجته التي كانت منزلتها عندي بذلك الموقف هي أعظم من أختي الحقيقية، من أجل تقديم الطعام الذي كان واضحًا أنه قد تمَّ إعداده خصيصًا من أجلي، وعندها استأذنت من مضيفي أن يعطيني إبريقًا من الماء الدافئ من أجل أن أغسل به رأسي بخارج الغرفة، فذهب مسرعًا وأفرغ إبريق الماء الحار الذي كان على المدفأة النفطية بوعاء كبير ثم أضاف عليه قليلاً من الماء البارد ليصبح دافئًا، وقال لي: تفضل. فتوجهت من أجل أن آخذ وعاء الماء الدافئ لأغسل رأسي في الفسحة الخالية بخارج الغرفة. فاستوقفني قائلاً: لا داعي بالذهاب للخارج والجو بارد هناك، بإمكانك الاغتسال هنا كما نفعل نحن.

عندها أصابني الخجل الشديد وتمنيت لو أنني لم أطلب منه ذلك، وهو بدوره سحبني بلطف لركن في الغرفة كان فيه حوض بلاستيكي صغير عادة ما يستعمل لغسل صغار الأطفال أو لبعض الملابس، ومددت رأسي فوقه من أجل أن أسكب عليه الماء الدافئ، فقال مضيفي الكريم:

– اغسل أنت رأسك بهذه الصابونة وأختك ستسكب الماء عليه عندما تريد.

وجدت في ذلك إحراجًا شديدًا لي، فتراجعت لأذهب إلى مكان جلوسي بعد أن عدلت عن غسل رأسي بتلك الطريقة المحرجة جدًا! فحلف الرجل بأغلظ الإيمان أن أرجع لأغسل رأسي وزوجته هي من ستسكب الماء عليه، ففعلت كما كان

يرغب وأنا محرج وخجل بدرجة عظيمة لم يسبق لي أن شعرت بمثلها بكل حياتي السابقة، وأتممت غسل رأسي على عجل وأنا أشعر وكأني قد أزحت جبلاً كان جاثمًا على رأسي، وبذلك زالت إحدى همومي التي كنت أعاني منها منذ اعتقالي، بسبب عدم إمكانية الاغتسال متى ما احتجت ذلك.

عندها بدأ مضيفي الشهم بتوزيع الصحون على سجادة سفرة الطعام التي فرشها فوق سجادة كانت مفروشة على أرضية تلك الغرفة، وامتلأت السفرة بما لذ وطاب من اللحوم والفاكهة والحلويات وحتى المكسرات من الفستق والبندق، فبدأنا بأكل الطعام ثم تبعه الشاي ثم الحلويات والمكسرات والفاكهة من ثلاثة أنواع، ونحن بجلستنا التي ما انفكينا أنا وهو من الحديث بمواضيع شتى، وذلك أمر كان يدل على أن مضيفي قد قدم لي ما لم يقدمه لنفسه بكل يوم، وهو من كرم أخلاقه وحسن تربيته، ولا أنسى طبعًا أختي التي لم تلدها أمي، التي كانت حريصة على خدمتنا بأن تأتينا بهذا الصحن من اللحوم أو ذاك الذي يحوي على الأرز الفاخر، طيلة فترة جلوسنا على سفرة الطعام وهي تحمل ابنها الرضيع على صدرها.

وللحقيقة فأنا أعترف بأننا بمجتمعنا المتمدن ببغداد لم يسبق لنا أن قمنا بواجب الضيافة على هذا النحو لأقرب الناس لنا، والسبب هو ليس لأننا بخلاء ولكن لأن المجتمعات المتحضرة لا يصادف فيها لعابر سبيل مثلي، يكون فيها جائعًا وغريبًا ومفلسًا، لكي نقوم له بنفس الواجب عن طيب خاطر كهذا الذي قدمه لي ذلك الشاب المحترم وزوجته الكريمة من غير معرفة سابقة لي، فكيف لي أن أجازي مثل هؤلاء الناس الطيبين؟ وبالمناسبة فإن شعوري هذا بالامتنان لمضيفي وزوجته بتلك الليلة لا يقلل من امتناني لمضيفي بالليلة السابقة لأنه قدم لي كل ما كان يملك، حتى لو كانت علبة صغيرة من سمك الساردين، لأنها كانت أخر ما كان يملك في بيته من طعام..

بعد أن أكلنا كل ما لذ وطاب من ذلك الذي قدمه لي مضيفي الكريم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وسألته بالعربية عن طبيعة عمله؟ فقال:

– إنني مثلك پيشمرگة بالحزب الديمرقراطي.

– في الأعلى أم بالأسفل (يعني بالعراق لو بإيران)؟

فقال تلافيًا للإحراج:

– هنا في الرضائية.

فقلت:

– لنتكلم بصراحة ولا أحد هنا يسمعنا، فإنني بكل صدق أرغب بمعرفة شعورك وأنت تقاتل من أجل هدف أصبح معروفًا وأنا أحترم رغبتك هذه، ولكني على يقين أنك لا تؤمن بها قطعًا، أليس كذلك؟

– مشاعري وأنا أقاتل إخوتي الكورد الإيرانيين الذين يؤمنوا بنفس ما أؤمن به يشبه لحد ما: رجل يحمل بيده سكين يقطع بها من لحم جسده ثم يضعه بفمه ليسد حاجته من الطعام لكي يستمر بالعيش مثل باقي البشر، وأظنك تعرف السبب من وراء ذلك؟! هذا لأنه الطريق الوحيد أمامنا لنسلكه، وهذا لا يعني أننا عندما نكون إلى جانب الپاسدار بقتال إخواننا، أننا نعمل على ضربهم بقسوة لأن بيننا قنوات سرية مفتوحة نسرب من خلالها المعلومات بخصوص توقيتات الهجوم عليهم، من أجل أن يحتاطوا لذلك ولا يتكبدوا الخسائر، وهذا كل ما نستطيع أن نفعله من أجلهم في الوقت الحاضر...

وبالرغم من التبريرات والحجج التي قالها مضيفي –وأنا لم أشك بصدق كلامه– تملكني شعور تصورت فيه أن كل ما دخل بجوفي من طعام كان مغمسًا بدم أولئك الأبطال، على الرغم من التبريرات المنطقية لمن عرف معنى الجوع الحقيقي والتشرد غريبًا ببلد مثل إيران، وبذلك فقد أصبح هذا الموضوع خبر مؤكد من خلال سماعي للعديد من الناس هنا في الرضائية ناهيك عن الذي

رأيته بمريوان من مشهد دموي لبعثة الشهداء من الكورد الإيرانيين، وبذلك فإن الموضوع قد استوفى حقه كمعلومة مؤكدة، على الرغم من يقيني أن الكثير من رفاقي البيشمركة أو من يناصرهم في العراق لن يصدقوا هذه الأعمال الوحشية التي يندى لها جبين كل إنسان شريف ومنصف مهتم بالشأن الكوردي، مهما كانت جنسيته أو قوميته، وبالتالي سيكذبون كل من يتطرق لهذا الموضوع... على هذا الأساس فضلت أن أغير من موضوع نقاشنا إلى مواضيع أخرى بعيدة عن السياسة، لأنني لم أرغب أن تتغلغل بنفسي ذرة من البغض تجاه ذلك الرجل الشهم وزوجته الطيبة، اللذان آواني وأطعماني، وحتى غسلوا لي رأسي من غير معرفة مسبقة بعد أن قدمت إليهم من المجهول، فقفزنا على مواضيع اجتماعية ولغوية شتى، وبها طاب مجلسنا الذي دام حتى وقت متأخر من تلك الليلة، ونسيت ما كان من أمر حديثنا بالسياسة.

ومن خلال محادثتنا استطاع مضيفي الذي كان يتمتع بذكاء حاد أن يكون فكرة عني وعن أهوائي ومبادئي، لأنه رجع بي إلى موضوع السياسة ليختم بها جلستنا، بعد أن بدأت زوجته الكريمة بتحضير فراش نومنا، فقال لي:

– لقد تشرفت اليوم بالتعرف عليك لأنني منذ فترة طويلة لم ألتق بشخص نقي مثلك، وكذلك لأني وجدتك ظريفًا حسن المعشر وعلى خلق عالي كما توقعت عندما رأيتك بظهيرة هذا اليوم بمكتب كاك جهاد الذي أخبرنا جميعًا بموضوعك، وعليه اسمح لي يا أخي العزيز أن أتقدم لك بنصيحة أخوية خالصة بالرغم من أننا بنفس العمر تقريبًا مع فارق معرفة وعدم معرفة كافية بهذا الطريق الذي أنت سائر فيه، خصوصًا بعد أن ورد لسمعي أنك ذاهب لتلتحق بنفس مجموعتك بكوردستان العراق.. وعليه فأنا أرجوك يا أخي العزيز أن تنتهي عن ما بدأت به لأنك لن تستطيع أن تغير من الأمر شيئًا، وأقولها لك بصراحة أن أمامك خيارين لا ثالث لهما، أولهما أن تكون على نفس شاكلة محيطك الذي تعمل

فيه، بكل تفاصيله التي لا ترضاها. وثانيهما أن ترجع من حيث أتيت لأنك إذا لم تصبح مثلهم فإنهم سيدبروا لك مكيدة من خلال وسائل لن تأتي على بالك، وبذلك يتخلصوا منك، كأن مثلاً يقدموك ككبش فداء بمهمة لن ترجع منها سالمًا، أو يغدر بك الآخرين من بقية الأحزاب لعلمهم أنك غريب وليس هناك من سيطالب بدمك، وحسبما علمت من كلامك إنك غير مجبر على أن تسلك نفس طريقي الذي لم أجد غيره، باعتبارك من عالم مختلف ولديك خيارات عديدة أخرى من أجل أن تشق طريقك في الحياة من غير أن تتخلى عن اعتزازك بقوميتك وبكوردستان. هذا لأنك قادر على أن تخدمها بطرق ووسائل أخرى بعيدة عن حمل السلاح من أجل مصلحة هذا أو ذاك من الأحزاب التي تتاجر بقضيتنا الكوردية العادلة وبشعبنا المنكوب..

وبعد أن أكمل الرجل كلامه الذي كان محقًا به، شكرته على صراحته لأني عهدت به الصدق بكل ما قاله منذ أول لقائي به، ولكني بنفس الوقت لم أؤيده وكذلك لم أخالفه بمضمون نصيحته لي، مع التشديد على عدم الإفشاء له بنيتي على رجوعي لبيتي، لأني أخذت العبرة من الدرس القاسي الذي تلقيته بسجون إيران، حتى أمسيت مرغمًا على الكتمان لما نويت وخططت له إلى أن أصبح بمأمن عندما أكون بخارج هذا البلد اللعين.

ومن أجل ألا أكون مضطرًا للتصريح بأي قول يتعارض وما نويت عليه حتى لا أكون ناكرًا لجميل ولكرم ذلك الرجل الطيب؛ أغلقت الموضوع بشكل غير مباشر وسألت مضيفي سؤالاً كان يتوارد بذهني كلما نظرت إلى خارطة إيران التي كانت معلقة على إحدى جدران تلك الغرفة، فقلت له:

– بودي يا أخي العزيز أن تشرح لي على هذه الخارطة عن موقعنا الحالي فيها وطول المسافة التي بيننا وبين مريوان، لكي يسهل علي الوصول بيسر أكثر.

– الأمر بسيط، أول شيء ليس لدينا خط مواصلات سفر مباشر لمحافظة سنندج، التي لو وصلتها سيكون الأمر سهل جدًا لتكمل طريقك لقضاء مريوان، والحل بهذه الحالة هو أن تستقل الحافلة المتوجهة لمحافظة كرمنشاه التي هي باتجاه الجنوب (هنا على الخارطة) ولكن لا تكمل الطريق وصولاً لها وعليك أن تُعلم السائق أنك تريد النزول عند تقاطع الشوارع الذي تكون فيه محافظة مهران على الشرق (يسارًا) ومحافظة سنندج على الغرب (يمينًا) وهناك ستجد العديد من الناس الذين ينتظرون الحافلة القادمة من مهران والمتجهة لسنندج، لتكمل طريقك معهم، وهناك احتمال أن من ضمن ركاب الحافلة التي ستستقلها سيكون هناك ركاب وجهتهم مثلك إلى سنندج، فتعرف عليهم ورافقهم حتى تصل لسنندج، ومن هناك ستجد العديد من الحافلات والعربات الصغيرة والكبيرة متجهة لمريوان التي ستنقلك لها بيسر وسلامة.

نظرت إلى الخارطة مليًا بعد أن استوعبت وحفظت الشرح الوافي الذي شرحه لي مضيفي، فتوقفت للحظات أنظر بها للخارطة، والتقطت لها صورة خزنتها بعقلي من أجل أن أتذكرها وأراجعها عند الحاجة، وبذلك تكون مهمتي قد سهلت أكثر والفضل يرجع لذلك الرجل الشهم.. وأثنائها كانت أختي العزيزة زوجة مضيفي قد أنهت تحضير فراش النوم، وكنت قد توقعت أنهم سيسمحوا لي بالنوم معهم بطرف بعيد عنهم من تلك الغرفة الدافئة، ولكني تفاجأت بتصرف كريم كان فوق العادة وفوق كل تصور، وذلك عندما طلب مني أن أستلقي للنوم على جانبه الأيمن في الوقت الذي كانت زوجته أختي بكل فخر ستنام على جنبه الأيسر!! فرفضت بشدة لأني كنت على يقين أنني لن أرتاح بنومتي بمثل وضع كهذا، ولكنه كعادته أصر بنفس الطريقة التي أصر فيها على أن تسكب زوجته الماء الدافئ على رأسي أثناء غسله.

وكالمرة السابقة لم أجد مفرًا من ذلك الموقف الأخوي جدًا، الذي كان فيه مضيفي شديد الإصرار، فوضعت رأسي على الوسادة، ونمت بعمق وكأنني كنت مخدرًا من شدة التعب والإرهاق ولأنني أيضًا كنت أشعر وكأني كنت نائم في بيتي أنعم بالطمأنينة.

لم أفق إلا عند الصباح عندما أيقظني مضيفي لتناول طعام الإفطار، فأكلنا سويًا، واستأذنته بعدها للمغادرة بعد أن شكرتهم على حسن الضيافة الأخوية، ودعوت لهم دعاء خرج من صميم قلبي قلت فيه: اللهم يا رب العالمين بجاه كل من له جاه عندك، وبجاه غربتي هذه، ومصيبتي التي أنجيتني منها، بأن ترزق هؤلاء الناس الطيبين الكرماء رزقًا حلالاً، وتحفظ لهم ولدهم الصغير وتجعله من الذرية الصالحة، وتجنبهم كل مكروه بحياتهم، اللهم أمين، وعندها ودعوني هم بدورهم بنفس الحفاوة التي استقبلوني بها، وخرجت من عندهم قاصدًا بيت مضيفي السابق من أجل السماح لابنه على مرافقتي بغية إرشادي لمكتب النقليات، وطبعًا لم أخبره أنني سأعرج على دائرة الانضباط العسكري لكي لا يتردد بالسماح لولده على مرافقتي.

وهذا ما سأمر عليه سريعًا دون أن أطيل شرح تفاصيله، بعد أن أطلت شرح تفاصيل ضيافتي للأيام الثلاثة الماضية لما كان لها من وقع دامغ على نفسي حينها، وعلى ذاكرتي بعدها، باعتبارها أحداثًا كانت مهمة برحلتي مع العذاب.

ذهبت لبيت مضيفي السابق واصطحبت ولده ابن الثالثة عشر عامًا من عمره، ومضينا سويًا لدائرة الانضباط العسكري، وهناك امتنع ذلك الفتى الطيب أن يتقدم معي قريبًا من حراس تلك الحامية العسكرية، وبقي ينتظرني على الرصيف بعيدًا، وهناك عند البوابة وبعد أخذ ورد مع حراس البوابة الذين لم يفهموا مقصدي خرج إلينا ذلك الملازم الشاب بعد أن رآني من نافذة

الاستعلامات، مناديًا على الحراس من أجل السماح لي بالدخول، فتوجهت إليه واستقبلني كالمرة السابقة بكل حفاوة واحترام، وسألني عن حاجتي لكي يلبيها لي، فابرزت له ورقة كاك جهاد المكتوبة باللغة الكوردية التي كتبها لمكتب مريوان للحزب الديمقراطي، طالبًا منه بأن يصدقها بختم الدائرة من أجل ألا يعترض طريقي أحد بنقاط التفتيش على طول الطريق لمريوان، فقال بعد أن اطلع عليها:

– أنا لا أفهم هذه اللغة، ولدي حل آخر.

فقلت بشوق:

– انجدني به أرجوك.

فقال سأزودك بكتاب رسمي أدون فيه ما جاء بالكتاب الذي استلمناه معك، وتم إطلاق سراحك بموجبه، بعد أن أضع صورتك عليه من أجل أن يبدو الموضوع رسميًا وغير قابل للشك والتأويل.

– ليست لدي صورة أحتفظ بها!

– اذهب للجانب الآخر من الشارع وستجد فيه عكاسي (مصور)، اطلب منه صورة فورية، وعند رجوعك إلي ستجدني قد أكملت طباعة الكتاب الرسمي ليصبح جاهزًا بعد أن نضع صورتك عليه ونختمها.

– أحقًا ما تقول؟ بهذه البساطة؟!

فقال ضاحكًا كعادته السابقة، بعد تلفت يمينًا ويسارًا ليتأكد أننا وحدنا:

– نعم، وذلك أبسط ما أستطيع عمله من أجل أن أعوضك على ما لحق بك من ضرر وسوء من أولئك الملالي الظلام، فاذهب وعد إلي بالصورة ولا تضيع الوقت..

خرجت مسرعًا قاصدًا استوديو التصوير في الناحية الأخرى من الشارع، ووجدت بطريقي ذلك الفتى الطيب الذي كان يرافقني لازال ينتظرني بنفس مكانه، وكنت قد ظننت أنه قد رجع لبيته، فذهبنا سويًا ووجدت استوديو للتصوير كُتب على بابه يافطة (عكاسي)، فدخلته وطلبت سحب صورة فورية لي، ففعل بعد أن أعلمني بتكلفة الصورة ووافقت من فوري، وسلمني الصورة بعد عشرة دقائق من الانتظار، وعدت مباشرة إلى صاحبي الذي كان عند كلمته ووعده لي، لأني حينها وجدته قد أكمل طباعة الكتاب الرسمي المستند للأوليات المحفوظة لديهم، فأخذ مني الصورة ودخل لغرفة المكتب وعاد بعد قليل ومعه الكتاب الرسمي وصورتي عليه، مختومًا بختم دائرة الانضابط العسكري لمحافظة أرومية، فشكرته كثيرًا بعد أن عانقته بحرارة جعلتني أنسى كل أحقاد الفرس علينا عبر آلاف السنين، وودعته متمنيًا له من كل قلبي ألا يريه الله مكروهًا بكل حياته، وخرجت إلى مرافقي ودليلي ذلك الفتى الطيب.

كان الوقت حينها قد أوشك أن يبلغ منتصف النهار، وطلبت منه أن يأخذني لكراج السفريات بداخل المدينة، فذهبنا مشيًا على الأقدام باعتباره كان قريبًا، وهناك تأكدت لي دقة معلومات مضيفي ليلة البارحة؛ أنه لا توجد خطوط مواصلات لرحلة مباشرة من الرضائية وحتى مريوان أو سنندج على أقل اعتبار، فحجزت على أول حافلة ستتجه لمحافظة كرمنشاه بعصر ذلك اليوم، ودفعت ثمن تذكرة السفر الذي كان يبلغ نصف ما كان بحوزتي من نقود، ثم سألت دليلي إن كان ما بقي معي من نقود كافية لتوصيلي إلى مريوان؟ أم أنها كثيرة وسيزيد منها بعض المال (لأني نويت أن أعطيها له)؟ فقال المسكين: لا أعلم لأني لم أخرج من هذه المدينة منذ ولادتي. شكرته كثيرًا على مساعدتي بإرشادي لما كنت أريده، ولولاه لما تمكنت من ذلك، وتمنيت له التوفيق بحياته من أجل أن يستطيع إعانة والده وأهله، ناصحًا إياه أن يصبر ويصابر لأن الغد

سيأتي بالفرج حتمًا، مشددًا عليه ألا ينسى أنه ينتمي لأمة عظيمة سيكون لها شأنًا بيوم من الأيام، أسوة ببقية الأمم من العرب والفرس وغيرهم، وأخيرًا ودعته بعد أن قبلته من جبينه وكأني كنت أودع ولدي الغالي نوروز الذي ولد بعد خمسة أعوام من ذلك التاريخ، وتوفي رحمه الله عندما أصبح بعمر ذلك الصبي النجيب، فمضى المسكين بعد أن ودعته عائدًا لبيته وهو يتلفت إلي بين الحين والآخر أثناء سيره ليلقي لي بتحية الوداع، فتأسفت كثيرًا لأنني لم أستطع أن أكافئ ذلك الفتى الشهم بشيء من المال بذلك الظرف الصعب..

ذهبت لأجلس بانتظار موعد انطلاق الحافلة الذي سيكون بعد ثلاثة ساعات لم تمضِ إلا بشق الأنفس، لأنها كانت جدًا ثقيلة على نفسي، وعندما نودي على الركاب بالتوجه للحافلة، تقدمت بثبات قائلاً: باسمك اللهم أبدأ أولى خطواتي عائدًا لبيتي، راجيًا أن تتم علي نعمتك بعد أن نجيتني من القوم الظالمين، لتخلصني من كل المارقين الذين سأمر عليهم حتى أصل سالمًا لبيتي.

صعدت بعدها للحافلة واتخذت موقعي بجوار إحدى النوافذ، وجلس بجانبي أحد الجنود الإيرانيين، وبأول حركة للحافلة تعالى صراخ بعض السفهاء من الركاب كعادتهم بهيجان مشعوذ كذلك الذي تكلمت عنه ووصفته أثناء مغادرتي لطهران، وكنت أثناء جلستي تلك حريصًا على أن لا أكلم أحدًا من الركاب بتلك الحافلة تجنبًا لأي مشكلة، واستمرت الحافلة في السير بنا على طول الليل بأكمله، وبذلك كانت قد اجتازت الكثير من المدن الصغيرة والكبيرة التي كانت بطريقنا، وتوقفت أثناء ذلك مرتين من أجل الراحة وتناول الطعام، وخلالها فضلت الجلوس بمكاني ولم أنزل من الحافلة إلى تلك المطاعم مع باقي الركاب، لسببين: الأول هو خشيتي مما قد يحدث لي من مفاجأت غير متوقعة، والثاني عدم معرفتي بقيمة المبلغ المتبقي بجيبي إن كان كافيًا لما ينتظرني في بقية

مشواري بما سأدفعه لأجور الحافلة إلى سنندج والأخرى من سنندج إلى مريوان، وهذا يعني أنني سأصوم حتى وصولي لمريوان التي لا أعلم متى سأصلها بنهار الغد.

وبما أن الرحلة كانت طويلة فالركاب عادة ما يكلمون بعضهم البعض وهذا ما أراد أن يفعله الجندي الإيراني الجالس بجواري، عندما قدم لي بعض التفاح الذي اشتراه أثناء نزوله للمقهى، ولكني لم أقبله منه على الإطلاق، واعتذرت عن قبوله لأني علمت منه أنه ذاهب ليلتحق بوحدته العسكرية بقاطع عمليات سومار جنوبًا من أجل قتال العراقيين، الذين حينها كانوا قد عادوا ليدافعوا عن العراق من داخل حدود العراق بعد أن اندفعوا في بداية الحرب ليقاتلوا طيلة العامين المنصرمين بداخل الأراضي الإيرانية، بعد الضربة الاستباقية التي اعتمدوها بشهر أيلول من عام ١٩٨٠، على أثر التحرشات التي قامت بها إيران على الحدود لأكثر من شهر، تمهيدًا لما أسموه بتصدير ثورتهم الإسلامية وتحرير كربلاء في العراق، إسنادًا لعملائهم من حزب الدعوة الشيعي الذي كانت له عمليات تخريبية بداخل العراق وفي بغداد على وجه التحديد، وقد تحول أثناء الحرب ليكون له دور خياني بارز وعلني بمهاجمة الجيش العراقي بجبهات القتال، ناهيك عن تعذيبهم للأسرى العراقيين بإيران، وهذه المعلومة يعرفها جميع العراقيين، ولا زال أزلام إيران من حزب الدعوة وفيلق بدر يتباهون بها باعتبارها كانت نضال مشرف لهم، ولكني أذكرها من أجل توثيقها بشهادة للتاريخ، بعد أن بدأ البعض بهذه الأيام بقلب حقائق التاريخ على اعتبار أن العراق هو من بدأ بغزو إيران لكي يجهض ثورتها المزعومة، وكأن العراق كان يبغي احتلال إيران من أجل توسيع رقعته الجغرافية أو لزيادة موارده النفطية كما فعل حقًا بعام ١٩٩٠ بغزوه للكويت وجعلها محافظة عراقية، وقد دفع العراق ثمنه غاليًا بكل السنين التي تلت ذلك الحدث.

ورجوعًا لموضوعنا فإن الحافلة لم تتوقف بعد تلك الاستراحتين وواصلت السير قدمًا على طول ما بقي من تلك الليلة، باستثناء توقفها الإجباري عند نقاط التفتيش العسكرية المنتشرة على طول الطريق، والتي كان خلالها جميع الركاب يبرزوا هوياتهم إلى الجندي الذي يصعد للحافلة من أجل التفتيش، ولم يحصل ولا مرة منها أن سألني أحد منهم عن هويتي أو ما شابه، وكأني كنت غير مرئيًا لهم عندما كانوا يمرون بجانبي بغرض التفتيش..

وفي مسيرتنا للفترة التي تلت اجتيازنا لمنتصف الليل، سألت ذلك الجندي الذي كان يجلس بجواري عن ذلك التقاطع الذي يربط محافظة مهران بمحافظة سنندج، مع يقيني التام بأننا لم نكن قد وصلناه، وذلك استنادًا للمعلومات التي حصلت عليها وحفظتها عن ظهر قلب. فقال لي وقد أظهر تودده على مساعدتي بعد ذلك الصمت الذي كنت عليه لأكثر من سبعة ساعات من السفر:

– سنصل في الساعات الأولى من الصباح وقد يكون بيننا من الركاب الذين هم مثلك يبغون الذهاب لسنندج.

وأثنائها نهض من مكانه وسط الظلمة الحالكة التي كنا عليها وأخذ ينادي بالركاب إن كان أحد منهم سينزل في تقاطع مهران سنندج، فأجابه أربعة من الجنود أنهم سينزلوا هناك. وعندها طلب منهم أن يأخذوني معهم ليدلوني على الطريق لسنندج، فقالوا نحن أيضًا ذاهبون لسنندج وسنأخذه معنا، وهنا أصبحت الأمور واضحة ومطابقة للخطة التي رسمتها في بالي، وبذلك زال التوتر والقلق الذي كنت عليه بعد أن سهلت الأمور معي. فأخذت أقلب خططي التي يجب أن أعتمدها لدى وصولي لمريوان وما يجب علي قوله لمسؤولي مقر الحزب الديمقراطي بمريوان، من أجل مساعدتي بتسهيل عبوري للحدود الدولية لتبدأ بعدها المرحلة الثانية من خطتي التي رسمتها بعناية، فارتأيت أن أفضل

خطة تجعلهم يعملوا على تسريع عبوري للعراق؛ أن أتخلى عن شفافيتي مؤقتًا لبعض الوقت، وهذا يعني أنني لن أذكر لهم أي شيء يتعلق بفترة سجني بقفص الأسرى العراقيين بطهران، وحجم المهانة التي تلقيتها هناك، لكي أصغر من حجم الموضوع، وأكتفي فقط بذكر أن الاستخبارات الإيرانية كانت قد حولتني لمقر القيادة بعد ترحيلي من مريوان إلى سنندج، إضافة لذلك فإنه من الضروري عدم إخبارهم عن الإهمال واللامبالاة التي لقيتها بمعاملة مسؤولي القيادة لي، لأخبرهم بدلاً من ذلك أنني قد لقيت أحسن المعاملة والترحيب منهم خلال الفترة التي قضيتها معهم، مع التشديد على ذكر أنهم قد تأسفوا لي عما حصل معي بمريوان مع تمسكهم بي من أجل العمل معهم في القيادة، ولكني رفضت ذلك لأنني رغبت بالعودة لمجموعتي بكوردستان العراق، وأنهم نزولاً لرغبتي فقد زودوني بالمال اللازم وكتابتهم لرسالة حزبية لمن يهمه أمري في مريوان مع عدم تعرض رسمي استحصلوه لي من الحكومة الإيرانية من أجل السفر لمريوان..

لقد وضعت تلك الخطة بتفاصيلها التي لم تحدث فعلاً آنذاك، وجعلتها مقبولة للتصديق تجنبًا للمبالغة بأحداثها كما حصل معي فعلاً، من أجل بث الرعب بنفوس أولئك الجبناء الذين يسموا أنفسهم بمسؤولين، وهم الذين تخلوا عني بشكل مخزي ببادئ الأمر بمريوان، لعلمي بأنهم يخشوا على مناصبهم الحزبية من الضياع لأنها كانت ذات منفعة شخصية لهم، وبالتالي فلا طاقة لهم بغضب القيادة عليهم بحالة عدم تعاونهم معي بهذه المرة، لأنني بموجب ذلك السيناريو المفترض سأكون مجبرًا على الرجوع لمقر القيادة في الرضائية وإخبارهم عن عدم تنفيذ أولئك المسؤولين الجبناء بمريوان لأمرهم بتسهيل عبوري لكوردستان العراق..

والأمر الذي جعلني مطمئنًا بتنفيذ تلك الخطة؛ هو يقيني التام الذي كنت متأكد منه بشكل قطعي أن الاتصالات حينها كانت شبه معدومة بين الاثنين، باستثناء التواصل ببعض الأمور الحزبية المهمة، وموضوع تسهيل عبوري بالتأكيد ليس ضمن تلك المراسلات الحزبية المهمة باعتباره حدث يومي عادي.

وعند انتهائي من وضع اللمسات الأخيرة لخطتي التي ستكون بمرحلتها الثانية من قراري برجوعي لبيتي في بغداد، شعرت حينها بالطمأنينة، وتذكرت أنني لم أتناول شيئًا من الطعام منذ الصباح وقد أوشكنا لاستقبال فجر يوم جديد، بعد أن مضى علي اثنتي عشر ساعة منذ أن غادرت الرضائية، وخشيت حينها أن أغفو قليلاً ويأخذني النوم أثناء توقف الحافلة في التقاطع المنشود عندما ينزل من يرغب بتكملة مشواره لسنندج، وأبقى أنا بعد أن تمضي بي الحافلة إلى كرمنشاه التي هي أكبر المدن بتلك المنطقة، لأتوه هناك بعد أن تصبح النقود التي بحوزتي غير مجزية لأجرة السفر إلى سنندج ثم لمريوان، وعندها ستضيع كل خططي بمهب الرياح.

وعليه فإنني بقيت يقظًا من غير أن يغمض لي جفن لأقاوم سلطان النوم، حتى وصلنا لذلك التقاطع المنشود عند الساعة الثامنة صباحًا، فتوقفت الحافلة ونزل الجنود الأربعة من الركاب ونزلت معهم، وكانت منطقة خالية جرداء مفتوحة ليس فيها أي بناء أو مقهى أو عمران نحتمي به من ذلك البرد القارص، سوى الشارع الذي كان قاحلاً ومغطى بالثلوج، ولم يمضِ على انتظارنا سوى بضعة دقائق حتى أخذنا جميعًا بالقفز المستمر بأماكننا حتى لا يتجمد الدم بعروقنا من شدة البرد، لأننا كنا في اليومين الأخيرين من تلك السنة الميلادية، وهو موسم ذروة البرد في إيران.

ومن مفارقات الصدف الغريبة إني لازلت أحتفظ بصورة لي كنت قد التقطتها بمثل تلك الأيام من السنة الميلادية بعام ١٩٦٨ في طهران، عندما كنت مع عائلتي بسفرة سياحية أثناء العطلة الدراسية لمنتصف السنة، ولكن بتفاصيل ظروف مختلفة كليًا..

بقينا على ذلك الحال لربع ساعة كدنا فيها أن نتجمد فيها لولا توقف إحدى الحافلات لنا من تلك القادمة من مهران والمتوجهة لسنندج، فصعدنا بها ووجدنا بعض الأماكن الشاغرة لنشغلها وننعم بالدفء، بعدها أعطى كل من صعد معي للحافلة مساعد السائق أجرته، ففعلت مثلهم وكان ثمنًا بخسًا قياسًا لما كان بحوزتي من نقود، واستمرت الحافلة بالسير المتواصل بنا حتى بلغنا سنندج بوقت الظهيرة وحينها توقفت الحافلة بنفس كراج النقليات الذي قدمت إليه مكبلاً من مريوان برحلة عذابي إلى سنندج ثم منه أيضًا إلى طهران، فنزلت من فوري لأبحث عن أية وسيلة نقل متجهة لمريوان، وقد نزعت كوفية الرأس الكوردية الحمراء خشية من بعض الكورد بسنندج، كما هو الحال ولنفس السبب لما كان يحدث بأطراف الرضائية، على الرغم من برودة الطقس وحاجتي لها بغرض الدفء، وعندها لم أجد سوى حافلة النقل العام للركاب التي كانت مكتظة بالركاب ولم يبقَ فيها مكانًا شاغرًا لأجلس فيه، في الوقت الذي كان هناك متسعًا من المجال للوقوف، فلم أبالِ وصعدت إليها.

انطلقت بنا الحافلة متوجهة لمريوان بمسيرة بطيئة ضمن رتل محمي من قوة عسكرية من أمامنا وخلفنا، حتى أصابني الإجهاد من شدة التعب نتيجة الوقوف والسهر والجوع المضني، إلى درجة كنت فيها أغفو وأنا واقف ببعض المرات عندما اتكأت على أحد المساند من خلفي، حتى وصلنا لمريوان، والوقت قد أوشك على الغروب بعد أن غابت الشمس، من غير أن يسألني أحد أثناء

الطريق بإبراز هوية أو دفعًا لأجرة، لأني لم أشأ أن أسأل أحد من الذين كانوا بقربي لعدم رغبتي بالتحدث، خشية من أن ينكشف أمري أني غريب، وعندها فرحت بوصولي الذي تحقق من غير حصول أي طارئ يعترضني، ونظرت إلى ما تبقَ بجيبي من النقود فوجدتها تكفيني للعودة إلى الرضائية، فحزنت كثيرًا وتأسفت بعمق لأنني لم أعطِ شيئًا منها إلى ذلك الفتى المؤدب الذي رافقني في الرضائية، بسبب جهلي لقيمة ما كان بحوزتي من تلك النقود التي تبرع بها اللاجئين الكورد من أجل أن أصل لمريوان، حتى أنني كنت أجهل بتفاصيل قيمة كل قطعة نقدية منها لأنه لم يتسنَ لي التعامل بها كثيرًا أثناء تلك الفترة القصيرة من مكوثي حرًا طليقًا في مريوان.

وأول ما وطأت قدمي أرض مريوان سجلت نجاحي للمرحلة الأولى وتحضرت لتنفيذ المرحلة الثانية من خطتي، وتوجهت إلى بيت صديقي كاك شريف كچل الذي كنت قد اعتقلت فيه وشاءت الصدف التي لم أخطط لها أن ترمي بطريقي ذلك الشخص الذي كان يمثل اللاجئين الكورد بفرع مكتب الحزب الديمقراطي بمريوان، وهو نفسه الذي استنجدت به عند اعتقالي وتخلى عني واسمه حمه سور حسين، فسلمت عليه ولم يتعرف علي، فأخبرته من أكون، فصعق من شدة الصدمة لأنه كان قد توقع أنني قد أصبحت بعداد الأموات إن لم أدخل بدهاليز أقفاص الأسرى العراقيين. فتلفت يمنة ويسرة وقال لي وهو يلهث:

– هل هربت من سجنك؟

فتلوت على مسامعه ذلك السيناريو الذي أعددته بعد أن طبخته على نار هادئة على طول الطريق من الرضائية لمريوان، داعمًا أقوالي بما كنت أحمله من مستمسكات أبرزتها له من أجل أن يقتنع أنني لست هاربًا. فقال كلامًا كنت متوقعًا أن يقوله:

– هل أخبرت القيادة عن فشلنا بمحاولة نجدتك من أيادي الپاسدار؟؟

فقلت له كلامًا من أجل تسوية الموضوع:

– وهل كان بيدكم شيء ولم تفعلوه بعد أن ألصق بي الپاسدار صادق تلك التهمة الخطيرة؟!

وللأمانة أذكر أن ذلك الشخص المدعو حمه سور حسين هو شخص ضعيف الحجة والشخصية، وهو ليس لئيمًا أو خبيثًا كغيره من السياسيين الذين تعاملت معهم بمقر القيادة، ولكن الحدث فعلاً كان أكبر منه، وبالتالي لم يستطع أن يقف بصلابة بوجه ذلك الپاسدار اللعين كما كنت أتمنى، وأن جل اهتماماته كانت منحصرة أن يدفع بالأمور بالتي هي أسلم وليس أحسن، من أجل أن يتدبر أموره واحتياجات معيشته، ولا زلت أذكر أنني بعد انقضاء ثلاثة أعوام من أخر مرة التقيته بمريوان؛ رأيت صورته منشورة بالجريدة الرسمية في العراق باعتباره كان أحد العائدين الذين سلموا أنفسهم للسلطة بعد شمولهم بقرار العفو العام عن الپيشمرگة من كل الأحزاب..

قبل أن أتركه وأذهب لبيت صديقي كاك شريف لكي أسترجع الأمانة المالية التي أودعتها عندهم وأمضي بحال سبيلي لأبيت بإحدى الفنادق المتواضعة بمريوان، سألته عن الموعد الذي سيحدده لي من أجل التحاقي بمجموعتي بكوردستان العراق، فقال:

– إن العبور لكوردستان يستوجب أن يكون على شكل مجموعة وليس فردي، من أجل ألا يتعرض لكم أحد من قوات الپاسدار بدورياتهم على الحدود، على اعتبار أن الموضوع سيكون واضحًا ولا يقبل التشكيك، ولدي بعض من أفراد الپيشمرگة من الذين أوشكت إجازاتهم على الانتهاء، وسيعودون إلى تشكيلات مجاميعهم في اليومين القادمين، وسأرسلك معهم بالتأكيد..

– بشرك الله بالخير وبارك بك، وإلى اللقاء.

ومضيت بطريقي لبيت صديقي كاك شريف، وقد علمت من حمه سور حسين أنه غير موجود بمريوان لأنه غادر بيته ليلتحق بمجموعته قبل عدة أيام، ولدى وصولي لهم طرقت بابهم الخارجي وخرج لي خال كاك شريف وابنه كاوه فسألني عن حاجتي، فعرفت بالحال أنه أيضًا لم يتعرف علي، فتقدمت بخطوات بداخل حديقة البيت والرجل أوشك أن يهرب لداخل البيت لخشيته مني، حتى تداركت الموقف وقلت له أنا ملازم سرچل، فنظر الرجل لي بتمعن وهو غير مصدق لما كانت عيناه ترى، وشهق من شدة فرحته بعد أن تيقن أنني فعلاً ملازم سرچل الذي اعتقدوا أنه قد ذهب مأسوفًا على شبابه بغياهب الأموات، ثم عانقني ودعاني بالدخول لبيتهم، وعندها استوقفته مترجيًا أن يتركني لحال سبيلي بعد أن يعيد لي مشكورًا الأمانة التي أودعتها عندهم، معللاً ذلك أنه يكفيهم ما نالوه من أذى معنوي بسببي، فأبى ذلك الرجل الكريم أن يتركني أرحل عنهم وسحبني من يدي لندخل للبيت، وجلسنا بغرفة الضيوف، وجاءت بقية العائلة الكريمة لتطل علينا بتلك الجلسة، وهو أمر غير مألوف طبعًا عند استقبالهم لأحد الضيوف، وقد فسرت ذلك على أن تلك العائلة الكريمة بكل أفرادها صغارًا وكبارًا اعتبرتني أحد أبنائها، وأنا فعلاً كان يشرفني أن أكون ابنا وأخًا لهم، ولم أنسَ أفضالهم علي ما حييت.

وبادر ذلك الشيخ الطيب ليكسر السكون الذي حل علينا بقوله:

– إن الله وحده هو الذي أنقذك، لأن كثيرًا من الذين نعرفهم ممن ألقي القبض عليهم بتهم مماثلة لنفس ظروف اعتقالك لم يرجع أحد منهم إلينا، سواء كانوا لاجئين أو پيشمرگة من حزبنا، فحمدًا لله على سلامتك.

وبعد كلمات الترحيب والمجاملة الودية كررت عليه رغبتي بالذهاب إلى إحدى الفنادق القريبة بغياب صاحبي كاك شريف عن بيته، لأنني حاليًا لم أعد أخشى من السلطة ولدي وثائق رسمية من الجيش الإيراني بعدم التعرض لي، ولا مجال للقلق مجددًا، كما أنني سأرجع لمجموعتي بظرف اليومين القادمين، وذلك ما اتفقت عليه مع كاك حمه سور حسين الذي لقيته وأنا بطريقي إليكم، ووعدني بتحقيق ذلك على وجه السرعة، وعندها رجوته أن يعيد لي الأمانة التي أودعتها عندهم بيوم اعتقالي وقدرها كان هو مائة دينار عراقي وتساوي حينها ثلاثمائة دولارًا. فقال الرجل:

– بالتأكيد أمانتك سترجع لك، ولكن من غير أن تغادرنا وتذهب لأي مكان آخر حتى تتم ترتيبات رجوعك لكوردستان، فهذا هو بيتك، وإن كنا قد قصرنا بحقك يومها لأن الموضوع الذي اتهموك به زورًا كان كبيرًا جدًا ولا يقدر على مواجهته سوى كاك شريف الذي كما تعلم لم يكن موجودًا حينها، وقد علم بالأمر عندما عاد من كوردستان بوقت متأخر، ولم تكن حينها بسجون مريوان، وعلى أثر ذلك ذهب لمقر الپاسدار وشتمهم علنًا بباب مقرهم، ومن أجل أن يطيبوا خاطره عملوا على نقل الپاسدار صادق الذي ألقى القبض عليك إلى مدينة أخرى، وعندما لم تقع بيده أية وسيلة يستطيع أن يساعدك بها عمل على إرسال برقية إلى مقر القيادة من أجل أن يتحروا عنك لدى السلطات بسجونهم..

فقلت له:

– إنني شاكر لكم صنيعكم هذا من أجلي، ولكني لا أريد أن أتسبب لكم بمتاعب جديدة بغياب صاحبي عن بيته.

– لا عليك، فلم تعد هناك مشاكل أخرى بغياب ذلك الپاسدار اللعين عن مريوان.

وعندها نزلت عند رغبته بعد أن دعاني ذلك الرجل الطيب للاستحمام، وكذلك دعاني أهل بيته الكرام على عشاء خاص يقدموه تكريمًا لي واحتفاءًا بعودتي سالمًا معافى، فاستحممت وكانت هي المرة الثالثة لي التي أغتسل بحمام حقيقي منذ قدومي إلى إيران، ثم تعشيت بأربعة أصناف من الطعام كان كل نوع منها مُعد من قبل إحدى إخوتي الزوجات الأربعة لصديقي كاك شريف، وجلست بعدها مرتاحًا بعد ذلك المشوار الذي انطلق بي من نفس تلك الغرفة قبل قرابة الثلاثة أشهر، لأرى كل تلك الأهوال والمصاعب التي كانت تعادل تجربة عمر بكامله، ثم أرجع سالمًا ومعافى إلى نفس نقطة انطلاقي القسري.

ومن أجل أن يعمل مضيفي بإدخال البهجة إلى قلبي بعد أن وجدني حزينًا وقد طغت الكآبة على طباعي التي تغيرت بشكل ملحوظ، حاول العثور على البث الموجه لمحطة التلفزيون العراقي باللغة الكوردية من أجل تلطيف الأجواء بتلك الجلسة، وكانت النتيجة أنه قد استقبل بث المحطة الرسمية لتلفزيون العراق من بغداد وقد ظهر على الشاشة المطرب المعروف سعدون جابر يشجي بصوته العذب وهو ينشد: "ألي مضيع ذهب بسوك الذهب يلكاه، واللي مضيع وطن وين الوطن يلكاه؟"، لقد كان موقفًا مؤثرًا للغاية اهتزت له كل جوارحي وأنا أنصت ومضيفي يتطلع لي ليقرأ قسمات وجهي، وكأنها كانت رسالة خاصة موجهة شاء القدر أن يرسلها لي عبر الأثير، وتفاعلت بها واعتبرتها هي نداء من الوطن لكي أرجع له ولا أبقى في الضياع. وأقسم بكل ما هو مقدس عندي أن ذلك ما حدث فعلاً؛ وهو ليس مشهد درامي حشرته عن قصد ضمن رحلتي مع العذاب، فرب صدفة خير من ألف ميعاد وهذا ما تحقق بتلك الصدفة العجيبة والغريبة بذلك التوقيت.

ولم تمضِ سوى ليلتين؛ كنت أثنائها ضيفًا على ذلك البيت الكريم وأهله المحترمين الذين حسبتهم وكأنهم أهلي، حتى اكتملت ترتيبات عودتي للعراق مع بعض أفراد من البيشمركة العائدين إلى كوردستان، وكنت حينها جاهزًا بعد أن أتممت استعداداتي من خلال شراء بعض الملابس التي ستقيني من البرد خلال الرحلة التي سنبدأها من داخل مدينة مريوان مشيًا على الأقدام، لانغلاق الطريق بوجه السيارات العاملة ما بين مريوان وقرية سياناو على الحدود، بسبب كثافة الثلوج المتساقطة عليه بتلك الأيام.

وفعلاً جاءني بصباح اليوم الثالث لتواجدي بمريوان سبعة أفراد من البيشمركة إلى بيت مضيفي، وغادرت معهم مريوان بعد أن ودعت خال صديقي شريف وولده كاوه، وكان ذلك اليوم هو الأخير لي بإيران والأخير أيضًا من تلك السنة الميلادية ١٩٨٢، وبهذه الحالة فعبورنا للعراق سيكون بعد منتصف الليل، وهذا يعني أنني سارجع لوطني مع الساعات الأولى من العام الجديد الذي كنت متفائلاً بقدومه، وبذلك فإن البدء بتنفيذ المرحلة الثانية من خطتي بالعودة لأهلي قد بدأت بذلك الصباح، وسيكون لي متسع من الوقت خلال الرحلة لكي أضع خطتي الثالثة التي ستلي عبوري للحدود بأمن وسلام.

بعد أربع ساعات من المشي والجري المتواصل بسرعة، شعرت بالتعب الشديد وعدم قدرتي على المواصلة بالسير إن لم نأخذ قسطًا من الراحة لفترة وجيزة، وهذا شيء لم أعهده بقابلياتي البدنية السابقة، عندما كنت أسير بحزم أثناء جولاتي السابقة ضمن مجموعتي بجبال ووديان كوردستان، أو بتلك المسيرة التي مشيت بها على مدار أربعة وعشرين ساعة متواصلة من غير كلل ولا ملل ولا شعور بالتعب، من غير مأكل أو مشرب أثناء قدومي لإيران، ولمعرفة البعض من المجموعة بالظروف التي مررت بها وجعلتني هزيل البنية، فإنهم قد

استجابوا لحاجتي بالتوقف بغرض الاستراحة لأن هناك متسعًا من الوقت كان أمامنا حتى نصل للحدود، التي كانت متمثلة بسلسلة جبال سورين، مع علمي اليقيني ألا أحد منهم سيستجيب بالتوقف للراحة إذا ما عجزت عن المواصلة عندما نعبر الحدود ونصبح بتلك المنطقة الخطرة التي هي تحت سيطرة القوات الحكومية العراقية، ابتداءًا من جبل سورين وحتى بدايات المنطقة المحررة التي تسيطر عليها الأحزاب الكوردية العراقية، وهي منطقة منبسطة جرداء قدرت مسافتها بخمسة كيلومترات، وتسير بها بعض الدوريات العسكرية على الطريق العام الذي يصل مركز محافظة السليمانية بقضاء بنچوين، ولو حصل هذا فعندها لن يكون لدي مانع بتركهم لي بسبب جريهم السريع، لأنني قد خططت أن أنهي مسيرتي التي بدأتها معهم، لأمكث في الظلام حتى الصباح، ثم أسلم نفسي لأي قوة عسكرية عراقية تصادفني على الطريق العام، من غير أن أكترث لأية تبعات قد تنجم على تصرفي هذا مهما كانت العواقب قاسية، لأنني عندها سأكون قد أوفيت بعهدي الذي قطعته على نفسي وأبريت بذمتي تجاه ربي.

وباحتمال أن الأمور سارت على نحو آخر وبقي رفاقي ملازمين لي طيلة الرحلة؛ فإني قد فكرت بالخطة البديلة التي ستقتضي مني الاستمرار معهم حتى نصل إلى مقراتنا بقرية بيانة بمنطقة شهرباژير، وهناك سيكون لي شأن وليس أي شأن مع كل من ستسول له نفسه أن يحاول تبرير تخليه عني بفترة سجني بمريوان، وسأخبرهم بما حل بي بسنندج وطهران وما رأيته وسمعته في الرضائية من أعمال يندى لها جبين كل كوردي شريف، إضافة لما كان من أمر ذلك الجفاء الذي قوبلت به بمقر القيادة، الأمر الذي جعلني أتسول أجرة سفري إلى مريوان.

لقد كانت تلك الأفكار هي محور انشغالي بتفكري الدائم منذ أن غادرنا مريوان وحتى جلوسنا بتلك الاستراحة القصيرة أثناء الطريق، وحينها دار بيننا أول حوار لنا منذ أن مشيت معهم بذلك الصباح، فسألني أحدهم وكان قد تعرف علي سابقًا في بيت مضيفي كاك شريف بالفترة التي سبقت اعتقالي، قائلاً:

– كاك سرچل.. إن الذي يراك الآن ممن سبق لهم التعرف عليك، لا يستطيع أن التعرف عليك منذ أول وهلة، فلقد تغير شكلك كليًا بعد أن فقدت الكثير من وزنك وأطلت من شاربيك!

– هكذا هي لعبة الحياة يا أخي العزيز.

ثم عقب أحد رفاقه وكان شابًا يافعًا لا يتجاوز الثامنة عشر من عمره، قائلاً:

– كم من الوقت قضيت في السجن؟

– قضيت بالتحديد أكثر من شهرين ونصف بثلاثة سجون كانت بثلاثة أماكن.

فقال من فوره وهو يهز بحركة صبيانية إحدى يديه:

– إنها فترة قصيرة، ويبدو أنك لست متعودًا على الحياة القاسية في السجون.

– يا ليتك كنت معي لترى كم كانت فترة سجني قصيرة يا ابن أخي العزيز.

بعد تلك المحادثة السقيمة عاودنا المسير من جديد ولم نتوقف إلا ونحن قد أدركنا الحافات السفلى لجبل سورين، من جهته المطلة على إيران، بعد أن اجتزنا كل السهول المنبسطة على طول طريقنا، بعد أن تفادينا المرور بقرية سياناو من أجل استلام السلاح من المخفر الحدودي المتواجد هناك، وهذا يعني أننا سنعبر للعراق ونحن عزل من السلاح، وكان الوقت حينها قد تجاوز العصر وأصبح يميل إلى الغروب لأننا سلكنا طريقًا مختصرًا ومباشر إلى النقطة التي

سننفذ منها بجبل سورين لعبور الحدود، وهي نفس الثغرة التي عبرت منها أثناء قدومي لإيران.

وبالرغم من شكواي من الآلام التي مزقت جسدي جراء تلك المسيرة المتواصلة وسط الثلوج؛ لكني كنت حريصًا ألا يعلم بها أحد ممن كنت معهم، لكي لا أستمع لما سمعته منهم أثناء الاستراحة السابقة، وبعد فترة التقطنا فيها أنفاسنا، بدأنا بأصعب مرحلة بتلك الرحلة؛ وهي تسلق ذلك الجبل الشاهق حتى بلغنا قمته بمنتصف الليل، ثم نزلناه وتسلقنا مباشرة الجبل الآخر من نفس سلسلة جبال سورين، الذي كان يطل من جهته الأخرى على العراق، وأثناء تسلقنا تصادف صعودنا مع وجود أحد المهربين الذي كان قد باع بضاعته بتلك المنطقة الصغيرة المحصورة ما بين الجبلين، وهو بطريق عودته لبيته من غير أن يشتري بضاعة إيرانية عادة ما يحملها على دابته، وكانت فرصة ثمينة لي من أجل أن أستأجر منه دابته لتحملني حتى نصل إلى أعلى قمة ذلك الجبل على أقل تقدير، فوافق الرجل بعد أن أعطيته عشرة دنانير عراقية، بشرط أن أنزل عن دابته عندما نفترق بمسارنا، وحينها ارتحت من ذلك العناء الذي بسببه خارت كل قواي، حتى وصلنا إلى سفح الجبل ونزلنا باتجاه العراق.

ومن ذلك المكان تبينت لنا كل الأقضية والنواحي العراقية بأضوائها المنبعثة، ومنها قضاء شاندري وناليارس التي كانت تتمتع بخدمات شركة الكهرباء الوطنية، فبدت لي وكأنها تحتفل بليلة رأس السنة من غير أن يعلم أهلها، وحينها غمرني شعور لا يمكن أن تصفه أبلغ الكلمات، عندما شعرت بالسعادة والفرحة الغامرة التي جعلتني أشعر وكأنني بحلم جميل، لقد كان منظرًا بهيجًا لا يوازيه سوى ذلك الوصف الذي يردده رجال الدين عندما يصفون دخول المؤمن

إلى الفردوس في الحياة الآخرة، وهناك يقال لهم هذا هو منزلكم فهنيئًا لكم ما صبرتم من أجله.

هذا هو وصفي لذلك المشهد الذي عبَّر عن يقيني بأنني فعلاً أصبحت في العراق من جديد، وكان حلم أشبه بالمستحيل أثناء تواجدي بأقفاص الأسرى بطهران، وتحقق بفضل من ربي الذي نجاني عندما كنت قد فقدت كل أمل بنفسي، وصدق بوعده وأرجعني على نفس التسلسل الذي انتهيت به بالزنازين الإيرانية، وقد يقول قائل: إن وصفك هذا لا يتطابق مع دخول المؤمنين للجنة؟ وجوابي هو: كيف لا والعراق بكوردستانه وكل ربوعه هو جنة الله على الأرض؟ وهو لم يغب عن بالي بأصعب الظروف التي مررت بها، وكنت خلالها قد نسيت أهلي وأوشكت أن أنسى حتى اسمي، ولكني صبرت وكافحت وتحملت كل الصعاب بالكلمة الصادقة التي لم تفارق شفاهي، ناهيك على أنني لم أرتضِ ببيع مبادئي التي تربيت عليها، حتى جازاني ربي بدخول جنته على الأرض..

وبعد أن أخذ الانبهار مني كل وقته؛ تنبهت إلى أن خمسة من أفراد المجموعة التي كنت معها قد أسرعوا الخطى وتركونا، وبقيت مع من كان غير قادر أن يلحق بهم، وكانوا اثنين من نفس عمري آنذاك، حتى وصلنا إلى أسفل الجبل، وعندها طلب مني صاحب الدابة أن أنزل عنها لأن مساره سيتغير وما نحن ذاهبون به من مسير، فترجلت عن الدابة وسلمته إياها، وعندها كان لزومًا علينا أن نسرع الخطى نحن الثلاثة لاجتياز ذلك السهل المنبسط الذي قدرته بخمس كيلومترات، وحينها استشعرت بالخطر المحدق بنا لو أننا وقعنا بكمين لإحدى الدوريات العسكرية، فعندها مصيري سيكون حتمًا أسوأ من رفاقي الذين معي، لأنني كنت أحمل بجيبي كل الوثائق الإيرانية ومنها ورقة عدم التعرض التي أصدرتها من الجيش الإيراني بمحافظة أرومية، وهي بحد ذاتها ستكون

السبب لإدانتي بتهمة الخيانة العظمى كجاسوس يعمل لصالح إيران المللية ونحن بأجواء الحرب!

عندها تبخرت من عقلي نشوة المحبة والحنين التي أسكرتني بطيبها منذ أن وطأت قدماي أرض العراق، فهممت بالجري وإسراع الخطى مع رفاقي الاثنين لكي نخرج سريعًا من ذلك السهل المنبسط، بعد أن تخليت عن خطتي بالتخلف عنهم والمكوث بالظلمة إلى أن يحل الصباح، لأعتمد خطتي البديلة بالاستمرار معهم، لأني لمست عمليًا أن الخطة الأولى قد تترتب عليها مخاطر كنت بغنى عنها، لأن النية السليمة والقلب الصافي عوامل لا تكفي للتعبير عن وطنيتي بمثل ذلك الموقف، الذي تصورت فيه نفسي سأكون متهمًا بالتجسس عندما يلقى علي القبض وبحوزتي وثائق إيرانية ستجعلني مدانًا بكل تأكيد..

فأسرعت بخطاي حتى سبقت زملائي وتقدمت عليهم بعد أن كنت متأخرًا عنهم طوال الطريق الذي بدأناه منذ الصباح، ونحن الآن في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل من اليوم الأول لعام ١٩٨٣، وبعد اجتيازنا للشارع العام الذي كان يوصل بنچوين بالسليمانية؛ لم يبقَ لنا سوى ساعة واحدة من المشي السريع حتى نصل لقرية صغيرة كانت هي مدخل الطريق إلى داخل المنطقة المحررة، التي كما أشرت أنها كانت خارج سيطرة الدولة وقطعاتها العسكرية المتواجدة بتلك المنطقة، وعندها اقترحت على رفيقاي أن نتجاوز تلك القرية ولا ندخلها لنكمل المسير ونتوغل بالمنطقة المحررة بأسرع وقت، ولكنهم لم يؤيدوني برأيي وأصروا على المرور بها كما هم متعودين أثناء الذهاب والإياب من وإلى إيران، فمضينا باتجاهها.

بمدخلها حصلت لنا مفاجأة كنت متحسبًا لها وكان لوقعها على نفسي وقع الصاعقة على رأسي، فلقد توجهت نحونا كشافات ضوئية قوية جدًا على حين

غرة أفقدتنا بصرنا ولم نعد نرى شيئًا من حولنا سوى رؤية واحدنا للآخر، وكأننا كنا بوضح النهار، ثم سمعنا صوت ينادي باللغة الكوردية يأمرنا بالتوقف، فتجمدنا بأماكننا وأدركنا أننا قد وقعنا بكمين كان منصوبًا لنا، وحينها انتابني شعور بالأسى وددت فيه لو أنني أتمكن من رفع يدي لأعض على أصابعي من شدة ندمي على قراري، الذي اعتمدته بعدم افتراقي عن زملائي من أجل المكوث بالظلام الذي كان عليه ذلك السهل الواسع من خلفنا إلى أن يحل الصباح، ناهيك عن نزولي عند رغبة رفاقي بالدخول لتلك القرية وهو أمر كنت متخوف منه.

وبينما نحن الثلاثة مشلولي الحركة والتفكير، جاءنا الإيعاز الثاني من مصدر الضوء الساطع بالتعريف عن أنفسنا، فسكت رفاقي لأنهم لا يعرفوا من هو المتكلم، هل هي مفرزة من الجيش العراقي بإسناد من بعض أفراد الجاش، وهي قوات كوردية موالية للدولة، أم هي مفرزة للپيشمرگة التي هي بين الحين والآخر كانت تقوم بدوريات خاطفة بتلك المنطقة، فخرجت من صمتي وتوكلت على الله وقلت:

– نحن پيشمرگة الحزب الديمقراطي.

فأطفأت الأنوار الكاشفة التي كانت هي السبب بكل هذا اللغط والارتباك، لأننا نعلم أن الپيشمرگة لا تتوفر لديهم هذه التقنية من الإنارة الكاشفة، باعتبارها من معدات القوات الحكومية، وأثناء ذلك تقدم إلينا بضعة أشخاص مسلحين رحبوا بنا وكانوا من ناوچة بنچوين التي يترأسها صديقي شريف كچل، وقالوا لنا:

– بإمكانكم المكوث للاستراحة لنصف ساعة فقط، لأننا سننسحب بعدها، وتواجدكم هنا سيشكل خطر على حياتكم.

فقلت ممازحًا:

– هل بقي من خطر آخر أكثر من أضويتكم التي عميت أبصارنا ونشفتم بها دمائنا؟!

وعندها دلنا أحدهم على إحدى البيوت التي كان أصحابها من الموالين لپيشمرگة الحزب الديمقراطي، ووجدنا بضيافة ذلك البيت اثنان من رفاقنا الذين كانوا قد سبقونا بالوصول، فلم نعاتبهم بتركهم لنا أثناء المسير، لأنه عرف طبيعي كان سائد ومتعارف عليه بمثل تلك الظروف، فجلسنا وأكلنا بعض الخبز واللبن وشربنا قدحًا من الشاي وانصرفنا على عجل لنكمل مسيرتنا من غير أن نقلق مجددًا لما قد ينتظرنا أثناء الطريق، لأننا ماضون إلى داخل المناطق المحررة. ومن أجل أن نطمئن أكثر فإننا قد استمرينا بالمشي لمدة ساعتين متواصلتين حتى توقفنا قبل طلوع الشمس بقليل، وحينها رمينا بأنفسنا على بقعة من الأرض التي كانت خالية من الثلوج التي كانت تغطي ذلك الطريق منذ أن وصلنا للعراق، لنرتاح بنومة اضطرارية قصيرة جدًا لأقل من ساعة، فنام زملائي الذين أصبح عددهم أربعة بمجرد أن لامست أجسادهم الأرض، وبقيت أنا مستيقظًا أشكر ربي وأسبح بحمده بعد أن أنجزت مرحلتين مهمتين من خططي، وبقيت منها مرحلة واحدة وأخيرة ستنتهي فور تمكني من دخولي لمدينة السليمانية لأسلم نفسي طوعيًا إلى السلطات الأمنية هناك..

بعد الانتهاء من التفكير بكل تلك الأمور حاولت أن أغمض عيني لأنام قليلاً، فباءت محاولتي بالفشل، لأنني لم أشبع من شم الرحيق العطر المنبعث من تراب تلك الأرض الزكية، وكنت أشبه بالعاشق الذي يضم حبيبته لصدره بعد فراق طويل، فهل يغمض للعاشق جفن وهو بهذه الحالة؟! الجواب بطبيعة حاله هو كلا، وهذا ما كنت أشعر به بعد أن أصبحت أقبل ذرات التراب التي كانت تلامس

شفتاي، قبلة من أجلي وأخرى لذلك الأسير البطل حمدي جاسم هزاع، وأخرى لصديقي الأسير حلمي، وأخرى وأخرى وأخرى لكل الطيبين من الذين التقيت بهم بأقفاص الأسرى العراقيين، حتى ارتويت وأيقنت بعدها أنني في يقظة من أمري ولست بحلم، وعندها طلت علينا شمس الحرية ونهضنا لنكمل السير، وكنا على غير عجلة من أمرنا، وقد توقفنا بكل القرى التي مررنا بها على الطريق إلى أن بتنا ليلتنا بإحداها عندما حل المساء علينا، وعاودنا المسير في الصباح الباكر إلى أن وصلنا لقرية بيانة بمنطقة شهرباژير بعصر ذلك اليوم، وكانت مقرات الحزب الديمقراطي بفرعيه الثالث والرابع لا زالت موجودة فيها.

وتوجهت من فوري إلى صديقي شريف، الذي طبعًا هو الآخر لم يعرفني عندما سلمت عليه وقال لي من أنت؟! وعندما قلت له أنا صديقك الملازم سرچل، لأنه يعرفني من خلال هذا الاسم؛ اندهش كثيرًا ورحب بي أطيب ترحيب، ثم اصطحبني إلى مقري الفرع الثالث والرابع لأحكي كل ما حصل معي في إيران إلى مسؤول الحزب هناك، وهو شخص طاعن في السن يدعى نادر هورامي، فذهبت معه إليه، وعندها أمر بإعداد طعام خاص لنا لأنه كان يعرفني من غير أن أجتمع به سابقًا، بسبب صيتي الذي انتشر داخل صفوف رفاقي البيشمركة جراء التصدي لما حاول الپاسدار الإيراني إملاءه علي في مريوان، فحدثته باللغة العربية التي كان يجيدها بشكل مفصل، وبالفم المليان من غير أن أخفي عنه أية تفاصيل، لكل ما حصل معي بدءًا بأسباب اعتقالي بمريوان ثم بسنندج ثم بطهران، إلى أن تمَّ تحويلي لمقر القيادة بالرضائية على أثر براءتي من تلك التهمة الكيدية التي ألصقها بي الپاسدار بمريوان، وأنهيت قولي له بكلامي:

– بعد كل هذا الذي رأيته وسمعته بإيران، هل يحق لنا أن نسمي أنفسنا ثوار يا رفيقي المحترم كاك نادر؟!

فخجل الرجل من تلك التفاصيل المخزية لرفاقنا بإيران وتقدم لي بالاعتذار عما لقيته بمريوان لضعف إمكانيات المسؤولين هناك، كما أنه لم يتعجب من تصرفهم المخجل عندما تخلوا عني، ولكنه تعجب من تلك المعاملة غير الودية التي استقبلني بها مسؤولي مقر القيادة في الرضائية، وطلب مني عدم البوح بما رأيته أو سمعته من أعمال قذرة يقوم بها أفراد الحزب في الرضائية بتحالفهم مع الپاسدار الإيراني، باعتبارها أمور لا يعلم ولا يجب أن يعلم بها أحد من رفاقي الپيشمرگة بكوردستان العراق.. فقلت له:

– لن تكون هناك فرصة لأن أحكي ذلك لأحد، لأنني منذ هذه اللحظة سأعتبر نفسي مستقيلاً من الحزب الديمقراطي، وإذا بدر مني أي تقصير أثناء كل مسيرة انضمامي لكم فحاسبوني الآن حتى لو كان جزائي هو القتل، لأنني أريد أن أترككم وصفحتي بيضاء ناصعة..

فقال:

– معاذ الله، ولكن إلى أين ستذهب؟

فقال صاحبي شريف وهو رجل قاصر بتفكيره:

– سينتقل لينضم إلى الجلاليين بالتأكيد.

وقصده كان واضحًا أنني سأنتقل بانتمائي إلى حزب الاتحاد الوطني الذي يتزعمه جلال الطالباني. فقلت لهما:

– أنا عندما التحقت بحزبكم كان هدفي هو خدمة الناس من موقع المسؤولية، وإنني اليوم أجد نفسي عاجزًا على تقديم أي شيء، حتى لو كان جدًا بسيط لهؤلاء الناس بعد أن فشلت بتلك المهمة بسبب كوني غريبًا عن المنطقة، وأجهل الكثير مما يجب علي تعلمه بنواحي عديدة، ومنها تعلمي للغة الكوردية على أقل تقدير، وعليه فإن مكاني يجب أن يكون وسط الجماهير لأتلقى المساعدة والدعم

منكم ومن غيركم، واستنادًا لكل ذلك فإنني أستميحكم المعذرة بإعفائي من المسؤولية والعودة إلى قرية گورگه ييرِ التي كنت قد التحقت بكم منها، لأعيش فيها بسلام، حالي حال كل إخواننا الذين يعيشون هناك، من غير أن أفكر بالانضمام ثانية إلى أي فصيل آخر بالثورة.

فعقب كاك نادر بقوله:

– أشكر لك صراحتك لأنك إنسان صادق بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وهذه الصفة مع الأسف غير موجودة عند أغلب أفراد حزبنا، فنحن نفاجأ بين الحين والآخر بهرب بعضهم دون سابق إنذار ومن غير أي سبب ليلتحقوا بقوات الجاش العميلة للحكومة بعد أن قضوا فترة طويلة من العمل بصفوفنا كثوار أصلاء، ناهيك عن انتقال الكثير منهم لأحزاب أخرى عندما ينفصلون عنا ويلتحقون بحزب الاتحاد الوطني على وجه التحديد وهم بكامل سلاحهم الذي جهزناهم به.

فقلت:

– طوال فترة بقائهم معكم لا تخلق منهم ثوارًا، لأن العقيدة هي من تنجب الثوار، وأنا عندما أجد نفسي أنني لن أرتقي لأكون وردة عطرة؛ فبالتأكيد سوف لن أكون شوكًا مؤذيًا، وعليه فنضالي للمرحلة القادمة من حياتي سيكون تأسيسي لعائلة كوردية يكون فيها أولادي أقدر مني بخدمة كوردستان وشعبها الكريم بعد أن أحرص على تعليمهم للغة الكوردية منذ أول يوم لولادتهم.

وعندها لم يجد الرجل عذرًا آخر يقنعني به لكي أستمر معهم بعد أن قدر صراحتي، ثم نزل عند رغبتي بقبوله لاستقالتي، ولكنه أبقى الباب مفتوحًا بيننا من خلال تزويدي بورقة معنونة إلى كافة الأحزاب، ومختومة بختم الحزب الديمقراطي من أجل عدم التعرض لي بأي مكان أتواجد فيه أثناء تجوالي بربوع كوردستان.

ثم قال لي:

– كاك سرچل هذه إجازة مفتوحة لك لتذهب أينما شئت من أجل أن ترتاح لفترة من الزمن بعد كل الذي لقيته من متاعب شاقة، وتذكر أن بابنا مفتوح لك متى وجدت نفسك قادرًا للعمل معنا من جديد.

استلمت تلك الورقة الموقعة من قبله ومختومة بختم الحزب، وتعجبت من كرمه وسخائه لي لأنه مثلاً لم يسألني هل كنت أملك بجيبي مبلغًا يكفي لأشتري علبة من الدخان كأبسط احتمال، وهذا لم يمنعني أن أشكره على تفهمه لدوافعي بالانفكاك عنهم. وانصرفت قاصدًا جامع قرية بيانة للمبيت هناك وللاستعداد ببدء رحلتي لقرية گورگه يير في الصباح الباكر، وبذلك أكون قد تخلصت منهم، وهم بدورهم قد تخلصوا مني بعد أن أصبحت عبئًا عليهم من أجل ألا أعمل على فضح أعمالهم في إيران من تلك التي اختزيت منها كشاهد عيان..

ومن أجل أن أوضح صورة موقفي الذي اعتمدته حينها حتى لا تبدو لمن تصله تفاصيل مذكراتي هذه أن هناك بعض التناقضات بتصرفاتي وقراراتي آنذاك، أذكر بأنني قد خلصت بعد تلك التجربة القاسية إلى أن المطالبة بحقوق شعبي الكوردي المسلوبة عبر أنظمة الحكم المتعاقبة على حكم العراق؛ هو كفاح مشروع ولكن بشرط ألا يكون على حساب خيانة العراق الذي هو الوطن الجامع لكل العراقيين والكورد منهم، مع إيماني بضرورة حق تقرير المصير لقيام دولة كوردستان الكبرى بعد توحيد كافة أجزائها، على نفس مبدأ ضرورة وحدة الأمة العربية كشعار يرفعه القوميون العرب، كما أن رفع السلاح هو حق من أجل الدفاع عن النفس، وليس من أجل تنفيذ أجندة خارجية من خلال الانقضاض لقتل جندي بسيط هو أصلاً منفي إلى كوردستان، ناهيك عن حرمة قتل أي رفيق كوردي في السلاح من بقية كل الأحزاب الكوردية سواء كانوا في العراق أو إيران أو تركيا.

هذا هو نهجي السابق والحالي لرؤيتي، ونهجي السياسي الكوردي الذي كنت ولازلت أرجو أن يحصل بين رفاق السلاح، ولا أظنه سيحصل لأن السياسيين من الكورد أو غيرهم يبحثوا دائمًا عن مصالحهم الشخصية والحزبية، ولا تغرني الشعارات البراقة التي طالما روجوا لها بكل زمان ومكان، ولا أعتقد أن تفسيري هذا يحتاج لشرح أوسع أو بيان أعمق يجعلني ملزمًا بشرحه أكثر...

وفي الصباح الذي أعقب ليلة مبيتي بجامع قرية بيانة؛ بدأت رحلتي إلى قريتي كوكيير التي كنت أسكنها أول قدومي لكوردستان، وهي تبعد مسافة يومًا كاملاً من المشي المتواصل على الأقدام، وعندها انزاح ذلك الهم الذي كان جاثمًا على صدري بعد أن أصبحت حرًا بامتلاك تسيير أموري بحرية تامة، وكان هدفي الأول هو اللقاء بصديقي محمد پيشمرگه وهو سياسي من حزب الاتحاد الوطني كان مقيمًا بصورة دائمة مع عائلته بقرية گورگه يير ، من أجل تدارس أمر كيفية عودتي إلى مدينة السليمانية.

وبذلك اليوم كنت قد طويت المرحلة الثانية من خطتي التي بدأت المرحلة الأولى منها في مدينة الرضائية بأقصى الشمال الإيراني، من أجل العودة لبيتي في بغداد، وقد تكللت حتى الآن بالنجاح، وبدأت بالمرحلة الثالثة والأخيرة منها التي ستنتهي بعد دخولي سالمًا لمركز مدينة السليمانية، وعندها توكلت على الله وبدأت رحلتي بمسيرة متباطئة، توقفت خلالها ببعض القرى الصغيرة والكبيرة على ذلك الطريق، حتى وصلت لقرية ماما خلان بوقت متأخر من عصر ذلك اليوم، والتجأت لمسجد القرية من أجل أن أقضي ليلتي فيه بعد أن قطعت من المسير نصف الطريق تقريبًا، وهناك دعاني بعض أهلها للعشاء معهم في بيتهم، وكانوا أناسًا بغاية البساطة واللطف والود والكرم وتلك هي عادة وطباع أهل تلك المنطقة من كوردستان، وحينها دار بيننا حديث ودي للغاية استفسروا خلاله عن سبب لكنتي الكوردية الضعيفة آنذاك؟ فأجبتهم ببعض الكلمات

باللهجة الباهدنانية المركبة على البارزانية التي تعلمتها من اللاجئين الكورد بالرضائية. فقالوا:

– أية لغة هذه التي تتكلم بها؟!

فقلت بلهجتي السورانية الركيكة:

– إنها اللغة الكوردية باللهجة الباهدنانية وأنا فرد منهم.

– إنك أفضل منا لأنك تعرف القليل من اللهجة السورانية، في الوقت الذي نحن نجهل بالكامل لهجتك البادنانية.

وفي الصباح الباكر تابعت مسيرتي من غير توقف على نفس خط سيري المتثاقل باتجاه قرية گورگه يير التي وصلتها ظهرًا، فتوجهت من فوري إلى مسجد القرية، وهناك تصادف وجودي لألتقي بذلك الرجل الطيب الكبير بالسن محمد الچته الذي كان له دور إنساني قدمه لي بأول فصول رحلتي هذه، عندما تبنى مشكورًا إيصاله لرسالة كتبتها لأقاربي في السليمانية، فسلمت عليه بشوق كبير وسألته عن أحواله وأحوال ابنه كاك نامق الذي هو أحد مسؤولي پيشمرگة حزب الاتحاد الوطني، وكان يسكن معه بنفس داره بتلك القرية الوديعة. وعندها سقطت الدموع من عينيه التي أتعبها الدهر وقال:

– لقد مات نامق، لقد غدروا به ومات مقتولاً.

وعندما انتهى من ترديد كلماته التي كانت قاسية جدًا على قلبي، شعرت وكأن سقف المسجد قد هوى وأطبق على رأسي، ليحبس أنفاسي لما كان لابنه كاك نامق من معزة خاصة ومنزلة عالية له بضميري، لأنه كان المثل الأعلى لي، والمثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى به كل شباب الكورد، لما كان عليه من شجاعة فائقة ونبل بالأخلاق وتفاني منقطع النظير في سبيل خدمة الآخرين من الذين يعرفهم أو من لم يسبق له التعرف عليهم.

وعند سماعي لمقولة والده أنهم غدروه، تبادر لذهني على الفور أن جماعته في المجموعة التي كان يترأسها هم من غدروا به لأنه كان يسير على الطريق الصحيح، الذي هو حتمًا لا يتوافق مع أهوائهم ومنافعهم الدنيئة وما أكثرها. فسألته:

– كيف حصل هذا؟!

– لقد ذهب لمدينة السليمانية متخفيًا من أجل زيارة زوجته وأولاده الصغار، الذين انتقلوا إلى هناك بأول بداية فصل الشتاء، وقد سرب أحد مساعديه ذلك الخبر إلى السلطات الحكومية من أجل أن يتخلص منه ويحتل مكانه لقيادة مجموعته التي كان يترأسها، وفي النقطة المتفق عليها أن يتسلل منها بالدخول لمدينة السليمانية كانت مفرزة عسكرية بانتظاره لكي تلقي القبض عليه، ولكنه أبى أن يستسلم وقاتلهم حتى قُتل، وعلى أثر ذلك الحادث أمسك رفاقه بمساعده ليحققوا معه لأنه الوحيد الذي كان يعلم بموعد مغادرته، وقد اعترف على الفور بأنه هو من أبلغ على ابني نامق..

عندها تساءلت بمرارة:

– حتى متى سيستمر هذا الغدر وتلك الخيانات بين الناس بهذه الأساليب الرخيصة؟ فمنذ أن قدمت من بغداد إلى هذه القرية وحتى هذه اللحظة، وأنا أسمع وأرى وأتعرض لمثل هذه الممارسات الدنيئة، التي بدأها قريبي الانتهازي الذي كنت أسكن معه بتلك القرية، ثم أرسلني بعيدًا جدًا دون أن يبالي بمصيري وما سأتعرض له من مخاطر لمصلحة دنيئة كانت تسكن بخاطره، ونهاية بمقتل كاك نامق غدرًا على نفس تلك الطريقة بحب الذات المريضة..

لقد كان وقع ذلك الخبر القاسي على نفسي مؤلمًا للغاية لأنني كنت أعيش أزمة عدم الثقة بالآخرين، وهذا ما جعلني أشعر بالإحباط التام الذي أثر سلبًا على

معنوياتي لتنهار كليًا، بعد أن تنفست الصعداء في اليومين المنصرمين على أثر خلاصي من تلك القيود والمخاطر، وكأن خبر مقتل كاك نامق هو الخاتمة التي سأنهي بها رحلتي التعيسة هذه.

وبعد مغادرة ذلك الرجل الطيب للمسجد وهو بصحبة حفيديه الاثنين الصغيرين اللذين كانا بعمر الخمسة والأربعة أعوام، جلست لأختلي بنفسي قليلاً بعد أن انقبض صدري، وودت لو أنني كنت أستطيع البكاء لكي أرثي صديقي كاك نامق في مماته، ولكني لم أتمكن حتى أن أخرج دمعة واحدة من عيني لأني قد أصبحت قاسيًا بطبعي بسبب تكرار مشاهداتي ومعايشتي لمظاهر الظلم والقسوة، بالظروف التي كانت تحيط بي من كل جانب، الأمر الذي جعلني عاجزًا عن التعبير بإنسانية مع هكذا حدث مؤلم للغاية.

وبتلك الساعة التي تملكني فيها الإحباط الشديد، قفزت لذهني فكرة مجنونة لا أجد حرجًا من ذكرها، وهي أن أتخلص من تلك الحياة التي فقدت فيها كل طموحاتي وآمالي، باعتبارها كانت خطوة للمخرج الوحيد الذي سيخلصني من دنس كل ما كان يحيط بي هناك وأتطهر كليًا، ولكن الذي أخرني وأوقف التنفيذ هي الوسيلة المنعدمة لدي لأنني كنت أعزل من السلاح، ولذلك قلت لنفسي: لماذا العجلة؟ فهناك احتمال كبير أن أنتهي من تلك الحياة وأغادرها نهائيًا غير مأسوف عليها عندما أسلم نفسي وأوفي بعهدي، لاعتقادي أن الأيام التي كنت أعيشها بعد نجاتي من زنازين الإيرانيين ما هي إلا أيام إضافية لعمر كان يتأرجح على حافة الموت، كاستحقاق يتحقق في الغالب بالزنازين الإيرانية التي كنت قابعًا فيها، ولم أنسَ أنني أيامها كنت دائم التفكير لو أن الإيرانيين أقدموا على قتلي فإن أمنيتي كانت لو أنهم تكرموا برمي جثتي بأي أرض عراقية على الحدود، وتلك أمنية كانت بوقتها أشبه بضرب من المستحيل، فما بالي وأنا الآن

حيًا أرزق أمشي على قدمي فوق التراب العراقي، وهو أمر يعلو على كل أمر كان مستحيلاً وقد تحقق بالفعل بمشيئة الله، وعليه قررت ترك ذلك الموضوع للذي جاء بي بعد أن أنجاني لكي أكمل مشواري حتى النهاية، وشفيعي هو حسن نيتي وترفعي عن أي مكسب مادي أو معنوي بكل ما ذهبت إليه.

مكثت بمسجد قرية بيانة وأنا على ذلك الحال المنكسر حتى دخل المسجد صديقي محمد پيشمركة، فناديت عليه ولم يتعرف علي بالطبع إلا عندما اقترب مني أكثر، وعندها رحب بي بحرارة بالغة وأخذني معه لبيته، وهناك سألني عن سبب انقطاعي عنهم، فأخبرته بتفاصيل كل ما جرى معي خلال الأشهر الثلاثة الماضية. فقال بلهجة تحزبية ضيقة:

– تلك هي تصرفات حزب الملايتي على مرَّ الزمان!

وكان يقصد الحزب الديمقراطي، لأنهم سبب كل المصائب التي لحقت بالشعب الكوردي، فقلت بلهجة شمولية:

– أخي العزيز كاك محمد أنت رجل مثقف وفهمك وإدراكك أكبر من هذه التسميات المتداولة لدى عامة الناس: "جلالي – ملايتي"، لأن السوء موجود بكل مكان، وهو سبب فرقتنا وعدم توحد كلمتنا، ومثال ذلك فقبل قليل كنت قد التقيت بوالد كاك نامق رحمه الله وأخبرني عن فاجعته بفقدانه لابنه الذي قتل جراء وشاية رخيصة من قبل أحد مساعديه، وهو رفيق له وعضو بحزبكم الجلالي، وقبل هذا وذاك فأنت تذكر قريبي الذي هو عديلك، عندما خطط بخبث لإرسالي بعيدًا للأسباب التي تعرفها، في الوقت الذي كنت أنت لا تبعد عنا بهذه القرية سوى مسافة أمتار، وكان باستطاعتك تنظيمي بصفوف حزبكم لأبقى هنا تحت رعايتكم حتى يشتد عودي، كوني غريبًا وأجهل الكلام باللغة الكوردية، وأنت تعلم أنه لم يكن منتميًا لكم ولا لغيركم من الأحزاب، لأنه أناني وانتهازي بطبعه كما تعلم. والحديث عن الخيانة والخونة هو ما أردته أن يكون محورًا

لموضوع أرغب أن أفاتحك به وأطلب منك الإرشاد بحكم خبرتك وبحكم الصداقة والقرابة التي بيننا، ورجائي أن يبقى طي الكتمان حتى أرحل، فأنا قد سئمت كل المؤامرات بكافة أنواعها، ولم ولن أستطيع التكيف مع هذه الممارسات الرخيصة التي أترفع بطبعي عنها.

– ما هو الموضوع؟!

– لقد قررت أن أتخلى مكرهًا عما جئت من أجله لأرجع إلى بيتي، ليس لأنني قد أصبحت نادمًا على الفكرة التي ساقتني لكوردستان لأنضم للثورة وهو حق مشروع، بل لأنني وجدت نفسي أختلف كليًا بتفكيري ومبادئي مع كل ما هو سائد ومطبق على الأرض من سياسات باسم كوردستان، هذا لأن الخلل ليس بالفكرة بحد ذاتها وإنما بطريقة تنفيذها، وهذا ما لمسته عند من عملت معهم أو من لم أعمل معهم على حد سواء، وخلاصة ما أريد قوله إنني لم أجد ثورة كوردية بمعناها الحقيقي ولا ثوارًا يقاتلوا من أجل الحق الكوردي، وبودي أن ترشدني على الطريقة التي أتمكن من خلالها بتسليم نفسي إلى السلطات الأمنية بشكل لا يعرضني للمهانة والذل من قبل هذا الطرف أو ذاك، لأنني أريد أن أصل بشكل مباشر لمن هو مَعني باتخاذ القرار على قتلي أو إخلاء سبيلي..

بعد برهة من التفكر بالأمر قال صديقي كاك محمد:

– إن العفو الذي أصدرته الحكومة عن البيشمركة وأنت منهم لأن لديك ما يثبت ذلك، هو مفتوح إلى أجل غير مسمى، ولكنه لا يشملك بالتأكيد لأنك كوردي من خارج منطقة ما يدعى بالحكم الذاتي لكوردستان العراق، وهذا يعني أنك بعد أن تسلم نفسك طوعيًا ستتعرض للسجن والتحقيق والمحاسبة كأي فرد خارج على القانون حسبما يدعون، هذا لأنك من وجهة نظرهم تعتبر عسكري هارب من الخدمة العسكرية بزمن الحرب، وعليه فإنه ليس هناك من أمر تستند عليه

ليشفع لك عندهم، خصوصًا وإنك كما أخبرتني لم تكن منتميًا إلى حزب البعث الحاكم أثناء عملك السابق بالجيش العراقي..

فقاطعته قائلاً:

– والمصيبة هي أنني كنت قد وقَّعت لهم على تعهد خطي ألا أنتمي إلى أي حزب آخر سواء كان معاديًا أو صديقًا لهم، وأجبروني على أن أدون بذلك التعهد أنني سأستحق عقوبة الإعدام إذا فعلت خلاف ما تعهدت به لهم..

– وهذا سبب آخر يجعل الموضوع أكثر تعقيدًا، ناهيك عن أنك تنوي بإصرار إخبارهم بكل ما حصل لك بأقفاص الأسرى العراقيين بطهران، والحرب مع إيران لازالت قائمة..

– إنه أمر طبيعي أن أخبرهم بما حصل معي بإيران، لأني على يقين أن لديهم عيون استخبارية بمريوان وبكل الأماكن التي تجولت بها بكوردستان، وسأستثني فقط ذكر الطريقة التي خرجت بها من السليمانية لأنها ستضر بأقاربي الذين ساعدوني مشكورين على هذا الأمر باعتباره فضل لن أنساه أبدًا، فأخبرني يا صديقي العزيز بما يتناسب وما نويت عليه..

– الحقيقة أنا لا أستطيع أن أرشدك على طريق قد يؤدي بحياتك وبالتالي أصبح أنا الملام على ذلك، ولكني أقترح عليك أن تكتب رسالة إلى بيت أقاربك بالسليمانية تخبرهم فيها عن بما جرى معك وتختمها بذكر قرارك بالعودة وتسليم نفسك لدوائر الاستخبارات العسكرية في السليمانية، واطلب منهم المشورة والنصح بهذا الموضوع علهم يرشدوك لطريقة تجنبك للأذى، وسنرسل هذه الرسالة مع امرأة جاءت من السليمانية لزيارة أقارب لها بقريتنا، وهي على معرفة وثيقة ببيت عمك كاك نجم الدين عارف أفندي، وهو من الشخصيات المحترمة من قبل الجميع في السليمانية..

– إن موضوع كتابة الرسالة هو أمر هين ولكني لا أرغب بأن أشرك أقاربي بقرار عودتي، بعد أن أثقلت عليهم كثيرًا عندما ساعدوني ببادئ الأمر، ولبوا رغبتي بالمجيء إلى قريتنا هذه، والحقيقة فأنا لم أعد قادرًا على هضم الأساليب الملتوية لعديلك الذي هو ابن عمي العزيز كاك نجم الدين بعد تجربتي السابقة معه..

– إنك ستكتب لوالده طالبًا مشورته وليس لابنه، وهو رجل ختيار وله تجارب في الحياة، وقد يستطيع أن يجد لك مخرجًا لا نعرفه ولم يأتِ على بالنا نحن..

– على الرغم من الإحراج الذي سأسببه لهم ولكني سأفعل كما تقول وأكتب الرسالة، ولكني غير متفاءل أنهم سيجيبوا عليها كما حصل في المرة السابقة عندما أرسلت لهم كاك محمد الچته طالبًا منهم إخباري بأحوال أهلي ببغداد، ورجع صاحبنا من غير جواب لما لذلك من تبعات قد تضر بهم، وأنت أعرف بقسوة السلطة في السليمانية وإيذائها لكل من يتعاون مع البيشمرگة.

وعليه فقد قضيت ليلتي أكتب تلك الرسالة المطولة على ضوء فانوس المسجد، الذي كان هو بيتي بتلك الأيام القلائل من وجودي بقرية گورگه يير ، وفي الصباح سلمته الرسالة، وهو بدوره أوصلها لتلك المرأة الفاضلة التي كانت بضيافة إحدى بيوت القرية، وكنت قد ذكرت فيها ملاحظة مفادها أنني سوف أتوجه لمدينة السليمانية لأسلم نفسي للسلطات هناك باليوم السابع من بداية تلك السنة ١٩٨٣، وحتى ذلك الحين فأنا سأنتظر الجواب، وقد أخبرت صديقي كاك محمد أن يخبر تلك المرأة الفاضلة بضرورة إيصال الرسالة لأقاربي فور وصولها للسليمانية، ليكون عندهم المجال باحتمال أن يجيبني أقاربي قبل اليوم الذي حددته للذهاب لمدينة السليمانية.

وبعد انقضاء الفترة التي حددتها ليوم رجوعي لم أستلم أية إجابة من أقاربي على رسالتي لهم، فتوكلت على الله للذهاب من خلال سيارة الأجرة البيك أب التي تنطلق بكل يوم من قرية گورگه يير لتقل من يرغب بالذهاب إلى المدينة بغرض التسوق وقضاء الحاجيات الضرورية،

وفي اليوم الذي حددته ودعت صديقي محمد پيشمرگه على أمل اللقاء به مستقبلاً إن كان لي في الحياة بقية، وهو بدوره كان مندهشًا بعدم مبالآتي بعواقب إقدامي على تلك الخطوة التي سأخطوها دون ترتيبات مسبقة مع من يساعدني بذلك الأمر، كما هو الحال عند كل الپيشمرگة عندما يقرروا العودة لبيوتهم، وحينها أودعته حاجياتي التي كنت أحملها بجعبة على كتفي منذ أن سلكت طريق الپيشمرگة، وقد أرسلها لي لاحقًا عن طريق أقاربي، وبعضًا منها لازلت محتفظًا بها كذكرى من تلك الأيام.

وهذه هي عادتي حتى الآن بالاحتفاظ ببعض الحاجيات البسيطة التي كانت بحوزتي عند اجتيازي لمفصل مهم لا يتكرر في الحياة إلا مرة واحدة، ومثال ذلك فلقد احتفظت بقفازات ووشاح صوفي من تلك الأيام، وكذلك احتفاظي بمحرار كهربائي صغير من أيام الخدمة العسكرية كنت استخدمه لغلي الماء للحلاقة أو لتحضير قدح من الشاي، وكذلك احتفاظي ببدلة عتيقة كانت أختي العزيزة قد أعطتني إياها من أجل أن أتصدق بها لمن هو محتاج لها ولم أجد من هو أحق بها مني لضعف حالتي المعيشية آنذاك، وقد ارتديتها أثناء قدومي مع عائلتي لبريطانيا بيوم الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٢٠٠٠ بغرض اللجوء والاستقرار فيها، لكي أنقذ ما بقي من عائلتي بعد فقداني لولدي البكر نوروز قبل ستة أشهر من ذلك التاريخ، بعد أن نال منه المرض وتوفي جراء الحصار الظالم على العراقيين، عندما انعدم أثنائها الغذاء والدواء وهلك جراءه أكثر من مليون طفل عراقي...

صعدت لتلك السيارة المتوقفة بـــ گورگه ييز وحشرت نفسي مع بقية الركاب بحوضها المغطى، ومضت بنا باتجاه مدينة السليمانية، وكنت قد وضعت بخطتي أن أنزل من السيارة عند أول نقطة تفتيش عسكرية نخضع فيها للتفتيش، وكنت حتى تلك اللحظة لازلت محتفظًا بكل الوثائق التي حصلت عليها منذ إطلاق سراحي في الرضائية وحتى يوم استقالتي من الحزب الديمقراطي، هذا لأني نويت أن أبرزها أثناء التحقيق من أجل أن أدعم بها أقوالي التي سأذكر فيها كل ما حدث معي خلال الستة أشهر الأخيرة، باستثناء كيفية خروجي من السليمانية بمعية أقاربي خشية الإساءة لهم وتعرضهم للضرر، لأني سأذكر لهم مضطرًا قصة مغايرة أخرى، وما عدا ذلك فالأمر يجب أن يكون جليًا وواضحًا لأني لم أعد أحتمل المكوث في السجون وما يرافقها من تحقيقات قد تكون مصحوبة بالمفاجآت التي سيواجهوني بها لمعلومات كانوا قد حصلوا عليها عن طريق أعوانهم ووكلائهم المنتشرين بكل قرية مررت بها، ومن غير أن أستبعد أن هناك مثلهم بكل فصيل من پيشمرگة كل الأحزاب الكوردية..

وأخيرًا وصلنا إلى السيطرة العسكرية التي كانت هي البوابة لمدينة السليمانية، وسمح القائمين عليها لسائق سيارتنا بالمضي قدمًا بعد أن أشاروا له بعدم التوقف بنقطة التفتيش، فمضينا حتى توقفت السيارة بإحدى الأسواق داخل المدينة، وهو أمر لم أكن متحسبًا له بخطتي، فترجلت لأنزل من السيارة أسوة ببقية الركاب لكي أعطي السائق أجرته بعد أن سألته بالكوردية:

– كم هي الأجرة من فضلك؟

فصاح بأعلى صوته بالعربية وكأنه كان يستغيث بدوريات الشرطة وقوات الطوارئ الأمنية التي كانت دائمة التجوال بطرقات وأسواق السليمانية:

– الأجرة عشرة دنانير عيوني.

فأعطيته إياها على عجل وهممت مسرعًا أعبر الشارع وأشير لإحدى سيارت التاكسي التي توقفت لي، فصعدت إليها وقد أصابني هلع لم يسبق لي أن شعرت بمثله حتى بأقسى المراحل التي مررت بها بسبب ذلك التصرف الأرعن لسائق البيك أب، وقد ندمت على سؤاله، وكان يجب أن أنزل وأتوارى عن أنظاره دون أن أدفع له الأجرة لأن تصرفه الأهوج يعني وكأنه كان يريد أن يعرف الناس بأن هذا الشخص الذي يلبس زي البيشمركة هو عربي فلا تتوهموا أنه كورديًا، وتلك بالطبع إشارة سيلتقطها على الفور رجال الأمن، الذين من محاسن الصدف لم يكن لهم تواجد بذلك المكان، وإلا فماذا كان يقصد من خلال صراخه وهو يجيبني على سؤالي له وهو يعلم علم اليقين أنني كنت بيشمركة، وقبلها كنت هاربًا باعتباره من سكنة قرية گورگه بير ، إنها سخرية القدر، لأن كل الذي تعرضت له كان بسبب اعتقادي إني مناضل أسعى من أجل أن أرسم الابتسامة على شفتي هذا البائس التافه وأمثاله من الجبناء الذين جازوني خير جزاء عندما تبرأوا مني بمريوان..

Openkan.com